

روايات د. نجيب الكيلاني

من روائع الأدب الإسلامي

رواية

مملكة البلعوطي

Balouty Kingdom

عبد الرحمن

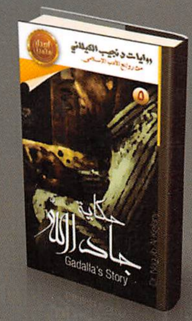
Dr. Naguib Al Keilany

روايات د. نجيب الكيلاني

من إصداراتنا



حارة اليهود



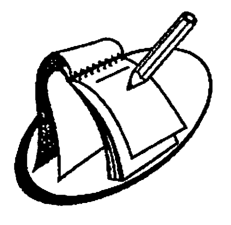
حكاية جاد الله



الصحوة
ALSAHOH
دار الصحوة للنشر والتوزيع
5 عطفة فريد من شارع مجلس الشعب
السيدة زينب - القاهرة
تليفون 0020223937718
تليفاكس 0020223937767
بريد إلكتروني
daralsahoh@gmail.com

Design by Abdul Rahman Magdy

مملكة البلعوطي



تأليف

نجيب الكيلانى

الطبعة الأولى للناشر

١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م

رقم الإيداع: ٢٠١٢/٣٥٠٠

الترقيم الدولي



للنشر والتوزيع
٤٨ شارع مجلس الأمة - القاهرة
تليفاكس: ٢٧٩٤٢٥٩٤
daralsahoh@gmail.com

•• الشخصيات الرئيسية فى القصة

- إبراهيم عبد اللطيف.
- أبو العز سليم.
- الشيخ سليم عبد القادر الشاذلى.
- فريد أبو العز.
- كامل وعبد الفتاح ومحمد وأحمد أولاد إبراهيم.
- المعلمة ريحانة.
- البابلية (مباركة).
- محمد بن بحراوية.
- توفيق بك الخشن.
- محمد بك جمال الدين... إلخ.

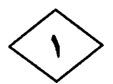
زمن القصة:

الثلث الأول من القرن العشرين تقريبًا .

مكان الرواية:

عدد من قرى مركز زفتى محافظة الغربية .

□□□



جلس «أبو العز سليم» فى مقصورته الأنيقة على أريكة من القطيفة الفاخرة، وقد فرشت الأرض بأبسطة أعجمية زاهية الألوان، وأمسك بيده مبسم النرجلية الزجاجية. ثم قربها من فمه، وجذب أنفاسًا عميقة ثم نفث الدخان من فمه وأنفه دون أن يسعل، كان أسمر الوجه، مفتول الشارب، مكحول العينين، عابس الملامح. . .

دخل عليه حارسه الخاص شيخ الخفراء «محمد بحراوية» وقال:

- «لو سمح سيدى». . .

- «ماذا وراءك يا غراب البيت؟».

- «مولانا الشيخ عبد القادر الشاذلى يريد مقابلتك».

نحى النرجلية جانبًا، ونظر فى دهشة:

- «مالى وهذا الرجل؟ لا يجمع بيننا شىء فى الدنيا ولا حتى فى الآخرة!! هل جاء ليقاسمنى أنفاس الحشيش أم ليعظنى؟ لا بأس دعوه يدخل، وأحيطوه بالاحترام الواجب.. وخذوا عنى هذه النرجلية الآن...».

كان الشيخ عبد القادر الشاذلى أبيض الوجه، أسود اللحية، سمح النظرات، قصير القامة، بإحدى يديه مسبحة سوداء، وبالأخرى عصا معوجة من خشب ثمين، ذات حلية معدنية، ألقى الشيخ السلام، فاستقبله أبو العز بقدر كبير من الحفاوة، وبعد أن أُحضرت القهوة، قال الشيخ فى صوت خفيض:

- «إنما أنا رسول خير».

- «لن يكون الأمر إلا كذلك، عهدناك رجلاً من رجال الله.. وهكذا كان أبوك...».

- «وأنا لا أشفع إلا لأصحاب الحق».

- «أعلم».

- «فلا تردنى خائبًا».

لم يعلق «أبو العز سليم» بكلمة عندما سمع تلك العبارة، ويبدو أنه خاف أن يتورط فى وعد قد يصعب إنجازه، فبقى صامتًا ينتظر.

قال الشيخ:

- «أنت تملك الأرض».

- «نعم أملكها أبًا عن جد».

- «وفى كل وقت تضيف إليها المزيد».

- «من يقدر يفعل».

وأشار الشيخ بلطف إلى ثلاث قضايا مهمة، أولها أن رجال أبو العز يستولون على أرض بعض الفلاحين بالقوة، ويرغمون أصحابها على التنازل له مقابل ثمن بخس، وثانيها أنه يستولى من الفلاحين على محاصيل الأرض المؤجرة لهم، ولا يعطيهم إلا الفتات، وثالثها أنه لا يتصدق على أحد من الفقراء، فى الوقت الذى يجزل فيه العطاء

لأعوانه من الظلمة والفسقة الذين يذيقون الناس، وخاصة الشاكين، ألوانًا شتى من العذاب.

طغت على «أبو العز سليم» موجة من الكبرياءِ الغاضب العاصف وهتف:

- «الأرض ومن عليها لى».

استعاذ الشيخ عبد القادر بالله من الشيطان وحوقل واستغفر، ثم قال فى خشوع:

- «الأرض لله يورثها من يشاء من عباده».

- «وقد ورثتها بأمر الله».

- «والخلق عبيده، وليسوا عبيدك يا عزب».

- «أنا أبو العز بك... ولقد خلق الله الناس درجات. وشاءت إرادته أن يكونوا فى خدمتى... وبهذا يمكنهم أن يعيشوا ويتزوجوا وينجبوا...».

- «إنهم بشر، وليسوا حيوانات».

شعر أبو العز سليم بما يشبه الاختناق، إنه لا يطيق نقد أو

معارضة أحد مهما كان شأنه، ولو كان الذى أمامه الآن رجل آخر غير الشيخ الشاذلى، لصلبه وربطه بالجمال وجلده بالسياط. لكن الصالحين من رجال الله لهم شأن آخر.. ويجب أن يعاملوا بكثير من اللطف والحرص، أو على الأقل بالدهاء والكياسة، حتى ولو أدى الأمر إلى بذل وعود كاذبة لا تتحقق...

التفت أبو العز إلى الشيخ وقال:

- «ماذا تريد يا شيخنا الجليل؟».

- «أن تكف عن الاستيلاء على الأرض».

- «لك ذلك، لن آخذ أرضًا إلا برغبة مالكها...».

- «وأن تخفض إيجار الأرض بمقدار الثلث... حتى يستطيع المستأجرون أن يحصلوا على قوتهم ولباسهم...».

- «أوافق...».

- «ثم لا تنسى حق الله فى مالك وزراعتك».

- «أما هذه فلى . . . إن شئت فعلت . . . وإن لم أشأ فلن أفعل، وهذا شىء يحاسبنى الله عليه ولا أنت . . . ».

قال الشيخ وهو يهم بالوقوف :

- «أبو بكر الصديق . . . خليفة رسول الله . . . حارب مانعى الزكاة . . . » نظر أبو العز إلى فنجان القهوة المملوء وقال :

- «لم تشرب قهوتك».

- «لم أتعود عليها».

- «آه . . . ربما تكون قد حسبتها من مال حرام . . . ».

- «لم أعد من عندك خاوى الوفاض . . . أشكرك . . . ».

حينما خرج الشيخ وحدث أبو العز سليم رجاله بما جرى، عتبوا عليه، ولاموه على الوعود التى بذله، وزعموا أن الفلاحين سوف يفلت زمامهم بعد ذلك، ولن يرضخوا لمشيئته، وهذا بداية الانهيار.

ابتسم أبو العز فى دهاء وقال لهم :

- «الذين يرفضون بيع أراضيهم سنتلف مزروعاتهم حتى يستسلموا ويبيعوا» .

والإيجار يا سيدنا البك؟

- «سنأخذ باليمين ما أعطيناه بالشمال» .

- «كيف؟؟» .

- «بأى وسيلة ممكنة» .

- «والشيخ؟» .

- «أرضيناه بالكلام ، وسوف يذهب بعضكم إليه ليكونوا من مريديه . . .» .

وسرت الأنباء فى كل مكان ، وفرح الفلاحون فرحًا غامرًا بما تناقله الناس عما دار بين الشيخ وأبو العز سليم ، وأخذوا يغنون ويطلبون ويزمرون ، والنساء يزغردن فى الكفور والقرى المجاورة ، ودعا الشيخ إلى حفل دينى مهيب ، حدث الناس فيه عن الالتزام بخلق المؤمن ،

والاستعانة بالحكمة والموعظة الحسنة والتفاهم، كبّر الناس وهللوا لهذه الانفراجة فى العلاقات بينهم وبين مالك الأرض القاسى الذى لا يرحم، إلا رجل واحد.

إنه إبراهيم عبد اللطيف.

قال له الناس:

- «ماذا ترى فيما جرى».

رد فى أسى:

- «كلام فى الهواء».

- «لكنه وعد الشيخ عبد القادر».

- «الشيخ أدى واجبه، لكن أبو العز وحسن مفترس، وقلبى يحدثنى بأنه لن يفى بوعوده...».

- «لماذا يا إبراهيم؟».

- «ذلك لأن الأقوياء لا يتنازلون عن امتيازاتهم بالسهولة التى تتصورونها».

- «وماذا نفعل؟».

- «عندى مبدأ. . . القوة لا تردعها إلا القوة. . . ولست أعنى بذلك الحرب وسفك الدماء، ولكنى أقصد القوة التى تحقق الهدف. . . أى نوع من القوة. . . مادية كانت أو معنوية. . . إن الأمر يصعب شرحه. . . لكنى أعود فأقول إن الشيخ عبد القادر قام بما يجب عليه أن يعمله. . . ولم يكن هناك مناص إلا أن يفعل ما فعل. . .».

وعلى الرغم من هذه الشكوك التى أثارها إبراهيم عبد اللطيف إلا أن روح التفاؤل غلبت على مشاعر الناس فى قرية شرشابة والقرى والكفور المجاورة، ذلك لأنهم يؤمنون -ولهم الحق- بأن ما اتفق عليه هو العدل، وأن كلام الشيخ الموقر لا يرده إلا فاسق لا يخاف يوم الوعيد، وسادت موجة من الارتياح. ونظر الفقراء والمعدمون إلى المستقبل نظرة أمل ورجاء، وتوقعوا أن يكون الموسم الزراعى القادم موسم رخاء، وستقام فيه حفلات الزواج، ويسافر البعض إلى الحج، ويلبس الأطفال الملابس الجديدة، ويستعد الأهالى للسفر على الجمال والحمير إلى مدينة طنطا للاستمتاع

بليالى مولد «السيد البدوى» الشهير ، فلقد طال بهم الحرمان منذ سنين، وقد آن الآوان لتدخل الأفراح فى بيوتهم وقلوبهم .

عاد إبراهيم عبد اللطيف فى ذلك اليوم إلى بيته، وكان يلبس جلبابًا صوفيًا غامقًا ، فوقه عباءة زرقاء من نوع «إمبريال» الفاخر ، وعلى رأسه عمامته رمز الوقار والقوة، إنه لم يذهب إلى الأزهر برغم حفظه أجزاء من القرآن الكريم ، لكن العمامة ليست لأهل الأزهر وحدهم، بل يلبسها الأعيان والوجهاء، وإبراهيم عبد اللطيف لم يكن غنيًا، ولكنه كان ذا هيبة وقوة، وكان يتمتع بقدر كبير من الذكاء والخبرة ويعرفه أكابر رجال المنطقة ، ويجله العمدة ، حتى العصابات التى انتشرت فى تلك الآونة كانوا ينظرون إليه نظرة تقدير ومحبة ، على الرغم من أنه كان يمسك ببعضهم ويؤدبهم خاصة عندما يبالغون فى استهتارهم وجشعهم ومروقهم، وكان العمدة والكبراء وكذلك مأمور المركز يستعبنون به فى حل كثير من المشاكل التى تحدث من آن لآخر . حينما مد رجله اليمنى إلى صالة البيت نادى بصوت قوى :

- «أين البابلية».

جاءه صوتها من الداخل وهى تقول:

- «أحشو لك الحمام بالفريك..».

وابتسم حينما رآها قادمة تتألق جمالاً وفتنة، إنها هى زوجته الرابعة، أو بمعنى آخر الثالثة بعد أن طلق واحدة، كانت آخر من تزوج، وقد عزم ألا يتزوج بعدها، لقد حفيت قدماه حتى تزوجها، ذلك لأنه لم يستطع أن يقاوم جمالها، كانت من أسرة عريقة من قرية «ميت ميمون» اسمها أسرة البابلى، ولهذا أطلقوا عليها فى شرشاب اسم «البابلية» على الرغم من أن اسمها الحقيقى «مباركة»، ومنذ أن تزوجها لم يعد يهتم كثيراً بالزوجين السابقتين: مسعدة التى أنجب منها ثلاثة من الأولاد وبنتين، ومبروكة التى لم ينجب منها غير محمد، لكن الحبيبة الأثيرة إلى قلبه «مباركة» أو البابلية كانت -للأسف- عقيمًا، لكن هذه القضية لم تؤرقه، فقد كان يكفيه جمالها وحبها الكبير له، إن عنده البنين والبنات، نصفهم تزوج والباقى فى الطريق.

سألها - وكأنها المسئول الأول عما يجرى فى البيت - قائلاً:

- «أين الأولاد يا بابلية؟».

- «كامل الكبير لا أعرف أين ذهب.. وعبد الفتاح سافر إلى معهده الدينى فى طنطا وأحمد ومحمد ذهبا إلى «حوض القتيل» لرى الأرض».

- «والبنات».

- «أسماء ذهبت إلى بيت زوجها.. ونجية ذهبت تحضر الماء» ثم ابتسمت قائلة:

- «الجو خال تمامًا.. سنأكل وحدنا».

- «وهم...».

- «أعددت لهم بطة سمينة وقدرًا من الأرز».

ضحك وقال:

- «ناس لها بط.. وناس لها حمام..».

قالت فى فخر:

- «أنت الكبير . . » .

- «آه . . لكم تروق لى كلماتك يا بابلية ! ! » .

- «ألست زين الرجال؟» .

قال وهو يقرصها فى خدها :

- «وأنت زين النساء فى العالم كله» .

خلع ثيابه الثقيلة ، وارتدى ملابس البيت ، ثم قال لها :

- «أحضرى الإبريق والطشت لكى أتوضأ وأصلى» .

بعد أن أدى الصلاة ، جلس معها وبينهما صحفة الطعام ، وقال :

- «سأذهب غداً إلى سوق سنباط» .

كان -إلى جوار- عمله بالزراعة- يتاجر فى المواشى والأغنام ، ويعقد صفقات لشراء وبيع الحبوب ، وهو صاحب حس تجارى جيد ، والزراعة وحدها لا تفى بمتطلبات البيت ونفقاته الخاصة ، وإنفاقه على من حوله من الرجال ، وقد نجح فى تجارته لحسن سمعته ، ونظافة

معاملته، ووفائه بالتزاماته، فكان يشترى ما شاء من الأسواق حتى ولو لم يكن معه المال الكافى، ثم يرد بعض ذلك الحقوق إلى أصحابها، ذلك أن ثقتهم به كانت مطلقة.

□□□



كان سوق سنباط من الأسواق الشهيرة من قديم، وأحيانًا يطلقون عليه «سوق الإثنين»؛ لأنه ينعقد يوم الإثنين من كل أسبوع؛ إذ يتدفق إليه الفلاحون القادمون من كل حدب وصوب، من زفتى مركز الإقليم، أو كما كانوا يسمونها «جمهورية زفتى» فيما بعد، ومن دهفورة وحانوت وغربة عويس وشبرا اليمن وميت البنر، ومن العجزية وكفر شبرا الديب وكفر نوبة وشبرا قلوج وشرشابة وميت المخلص وكفر الجزيرة وغيرها من البلاد المجاورة، وعادة ما يكون السوق عامرًا بأصناف البضائع المختلفة، البقول والأقمشة والعطارة والبقالة وأصناف المأكولات، بالإضافة إلى المواشي بشتى أنواعها والخيول والحمير والإبل، ومن المعروف أن قرية سنباط قرية كبيرة تشتهر بمزارع الفواكه

ومختلف المزروعات، وملحق بها كفر العرب الذى تقيم فيه طائفة من «الغوازى» من أصل غجرى، يغنين ويرقصن فى الأفراح فى شىء من الميوعة والتبذل، حتى قيل إن سنباط بلد الغوازى، وهذا كان يضايق أهل سنباط، ذلك لأن فيها أسر عريقة، ورجال فضلاء، وكان على رأس هذه القرية عمدة ذو هيبة وقوة هو «توفيق بك الخشن».

وعلى أبواب السوق الكبير يقف العسكر المصريون، ومعهم عدد من العسكر الإنجليز، يحصلون الرسوم على مختلف المبيعات من الداخلين والخارجين، ومن الجدير بالذكر أن فى سنباط حى خاص بالمسيحيين يطلقون عليه «حصة سنباط»، وبها كنيسة واحدة قديمة إلى جوار المساجد العديدة، لكن الناس يعيشون جميعًا فى محبة وسلام، فى ظل الرخاء التجارى والزراعى.

فى هذا اليوم قدم إبراهيم عبد اللطيف إلى السوق، ومعه شقيقه الأصغر «السيد على»، ونفر قليل من المزارعين المعاونين لهما، ومعهم بضعة رؤوس من الماشية والأغنام، وكان عيد الأضحى قد اقترب، مما يفسر ازدياد النشاط فى

حركة البيع والشراء، لكن إبراهيم عبد اللطيف لاحظ أمراً غريبًا لم يألفه من قبل، أن رجال «أبو العز سليم» قد فرضوا سيطرتهم على السوق، وتدخلوا فى عمليات البيع والشراء، فيشترون قهراً بالأثمان التى يحددونها، ثم يبيعون بالثمن الذى يروق لهم، فإذا ما اعترض أحد من التجار أو عامة الناس ضربوه، وتضايق إبراهيم أشد الضيق عندما رأى العسكر، وخاصة الإنجليز يساندون رجال أبو العز سليم، مقابل رشوات يقبضونها علانية، وقف إبراهيم مفكرًا، ثم قال لأخيه:

- «السوق تحول إلى فوضى».

رد السيد على:

- «سنمنى بالخسارة».

- «أصبح السوق جزءاً من عزبة «أبو العز سليم»، ومحمية من محميات الإنجليز».

- «ماذا سنفعل يا إبراهيم؟».

- «السكوت على ذلك عار».

- «وكيف نستطيع التصدى لهذا التيار الجارف».

- «الموت ولا هذا يا سيد على».

- «لا تتسرع يا أخى.. فمن نكون؟».

- «أحيانًا تصبح المغامرة ضرورة».

- «إنها مقامرة يا أخى إبراهيم.. والعسكر مسلحون».

- «إنى مدرك لكل شىء».

- «لنرجع من حيث أتينا فى صمت.. وقد نوفق الأسبوع القادم».

ضحك إبراهيم فى سخرية وقال:

- «إذا أقررنا بالهزيمة اليوم، فسنستسلم فى كل المرات القادمة، ولن تقوم لنا قائمة..».

- «والعمل..».

صاح إبراهيم:

- «اضرب بعصاك».

- «أضرب من؟».

- «كل من يقف فى طريقك.. وسترى».

قال تاجر صديق متدخلاً:

- «تعقل يا إبراهيم.. نحن قلة».

لم يستجب إبراهيم للرجاء، بل رفع وصاح بأعلى صوته:

- «اضرب يا ولد.. اضرب ولا تخف..».

أخذ إبراهيم يطوح عصاه يمنة ويسرة، ومن ورائه أخوه السيد على، واضطربت أمور الناس، وهاجوا وماجوا، وفرت المواشى والأغنام، واختلطت أصوات البشر والحيوانات، ولاذ أنصار أبو العز سليم بالفرار، وتبعهم العسكر والخفراء، ولم يدر تجار الحبوب والأقمشة والأطعمة ماذا يفعلون، وأخذ الناس يجرون صوب أبواب السوق دون وعى، ولم تكن هناك فرصة لتحصيل أية رسوم.

وكان الناس يحملون ما خف وزنه وغلا ثمنه، وسرت أنباء تقول إن إبراهيم عبد اللطيف وأخوه قد ضربوا من فى السوق، والتمسوا العسكر، وأن الانجليز لاذوا بالفرار.

وصاح رجل مجهول قائلا:

- «البلعوطى ضرب السوق».

وأخذ الفارون الهائمون على وجوههم يرددون «البلعوطى.. البلعوطى» ولم يخف معنى هذه الكلمة على أحد، إن معناها أن إبراهيم عبد اللطيف استطاع بشجاعته الفائقة، وجرأته الجبارة، أن يجعل الناس يتراكضون ويتساقطون من شدة الزحام والهلع، لقد سيطر على الموقف تمامًا ولهذا قالوا البلعوطى. وقد انتهز البعض هذه الفرصة فأرادوا أن يكون لهم فضل المشاركة فى قهر أبو العز سليم والسلطة والإنجليز، فآزروا إبراهيم عبد اللطيف، وساروا صفًا واحدًا وراءه، يأتمرون بأمره، ويلبون إشارته، قد تراجع الخوف، وبرزت الجسارة المكبوتة، ولم يعد المقهورون المظلومون يرهبون الموت، وسار الناس فى شوارع سنباط يهتفون:

«عاش البلعوطى

نحن معك يا بلعوطى

يسقط أبو العز سليم

يسقط الإنجليز . . .

عاش البلعوطى» .

خرج «توفيق الخشن» عمدة سنباط من «الدوار» فى عجلة ، ووقف يشهد الموقف مندهشًا ، وأصدر أوامره للخفراء بعدم الصدام مع المتجمهرين ؛ لأنهم ضيوف على سنباط من قرى مجاورة ، والعدوان عليهم يعنى خراب السوق فى المستقبل فضلاً عن أنه لا يعرف أسباب هذه الفوضى الضاربة التى لم يحدث لها مثيل فى يوم من الأيام .

قصد توفيق بك الخشن إلى الحشد السائر فى الطريق ، وحوله خفراؤه المسلحون وبعض العسكر ، وأشار بيده أن يكفوا عن الضجيج حتى يمكن التفاهم معهم ، فساد الصمت ، ثم قال :

- «ماذا تريدون؟» .

رد رجل فى وسط الزحام :

- «اسأل البلعوطى» .

التفت توفيق بك إلى شيخ الخفراء وقال :

- «من يكون البلعوطى؟» .

- «لا أعلم . . » .

عاد إلى الجمع الحاشد ، وسأل :

- «أين البلعوطى ، ومن هو؟» .

شق الطريق إليه رجل ربعة أسمر ممتلئ الجسم وقال :

- «هو إبراهيم عبد اللطيف من شرشابه» .

- «فليأت إلىّ لأعرف حقيقة ما جرى ، أنتم جميعًا تعلمون عدلى وتسامحى . . وأنا لا أسمح أن يظلم أحد فى أرضى . . أليس كذلك؟» .

صاحوا جميعًا :

- «بلى . . بلى» .

- «فليأت البلعوطى . . أعتقد أنى سمعت عن إبراهيم عبد اللطيف من قبل . . » .

قال الرجل الأسمر الربعة الممتلئ الجسم :

- «عهد الأمان أولاً يا بك» .

- «أعاهدكم أن يكون آمنًا ، وألا يصيبه مكروه» .

- «أنا أخوه السيد على . . وسأدعوه إليك . . » .

كان إبراهيم عبد اللطيف بعد أن خرج من السوق ، قد قصد بيت أحد أصهاره الموثوق بهم ، واختفى فيه حتى تهدأ العاصفة ، وكان شقيقه السيد على يعرف ذلك ، وعندما تقابلا قال :

- «توفيق بك فى انتظارك» .

صمت إبراهيم مفكرًا ، فعاجله أخوه بقوله :

- «لا تخف . . إنه رجل صادق» .

ضحك إبراهيم فى سخرية وقال :

- «ومتى خاف أخوك يا سيد على . . كان جدى أحمد

رحمه الله يقول الدنيا لا تساوى عند الله جناح بعوضة . . أنا لا أخاف الموت يا ابن أمى . . » .

ونظر حوله ثم قال :

- «أحضر معك كبشين أملحين يا سيد على» .

وخرج الرجلان ، ومضيا فى الطريق ، وعرف الناس العائدون من السوق إبراهيم بهامته الطويلة ، وعمامته البيضاء وعصاه الغليظة ، وابتسامته الواثقة ، وأخذوا يرددون فى إعجاب :

- «البلعوطى . . البلعوطى» .

حينما وصل إلى بوابة الدوار أحاط به الخفراء من كل جانب ، وكانت التعليمات الصادرة لديهم أن يعاملوه بكل احترام ، وحينما دخل على توفيق بك قال :

- «السلام على سيد القوم» .

- «عليك السلام . .

- «هل يقبل البك الكبير هديتى المتواضعة . . . كبشين

أملحين لطعام غذائه . . والنبى قبل الهدية . . قال توفيق بك باسمًا :

- «أنت ضيفنا . . ومع ذلك . . قبلت الهدية يا بلعوطى» .

جلسا وشربا القهوة ، وتحدثا عن موضوع التمرد الذى جرى فى سوق اليوم . فروى إبراهيم تفاصيل الأحداث بأمانة أذهلت توفيق بك الذى قال :

- «أنت رجل صادق وشجاع» .

- «يا سعادة البك . . لقد أساء أبو العز سليم ورجاله السيرة ، وعاث فى الأرض فسادًا . . » .

- «أعرف ، لكن لا تنسى أنه صديقى» .

- «لهذا صارحتك لعلك تصلح ما فسد . . » .

- «لكن . . أما كان الأجدر والأوفق أن تخبرنى أولاً لعلى تداركت الموقف؟ إن خسائرى وخسائر الحكومة كبيرة . . فمن تراه يتحمل تلك الخسارة . . .

قال إبراهيم فى ثقة :

- «البك الكبير يستطيع أن يجد الحل ، ومن أنا؟ أنا رجل بسيط . . تحركت لدفع الظلم . . فتحرك الناس . . لم أدعُ أحدًا للتمرد . . نحن لا نسفك دمًا ، وإنما حافظنا على حقوقنا وكرامتنا» .

لم يخف توفيق بك الخشن إعجابه بإبراهيم عبد اللطيف أو البلعوطى كما يحلو له أن يسميه ، وشد على يده فى حماسة عند وداعه إلى باب الدوار ، وأمر الخفراء بأن يوصلوه إلى خارج سنباط آمنًا مطمئنًا ، ثم قال له البك :

- «أتريد أن أناديك بالبلعوطى؟» .

ابتسم إبراهيم شاكرًا ، وقال :

- «لا بأس . . إن الناس كثيرًا ما يبالغون يا بك . . هل من المعقول أن أطارد سوقًا بأكمله ، وأجعل من فيه يتراكضون؟» .

قال توفيق:

- «الواقع أن ذلك ما حدث.. إن عصاك سحرية.. كعصا موسى التى ابتلعت كل الأفاعى..».

- «أستغفر الله يا بك.. ما أنا إلا عبد ضعيف من عباد الله».

- «أعجبنى فيك يا بلعوطى أنك أبيت الظلم».

- «هذا أمر يسعدنى جداً».

- «لماذا؟».

- «لأن غيرك من العمد يسحقون كبرياء الناس».

- «ذلك لأنهم ضعفاء، ولا يثقون فى أنفسهم.. لكنى أقمت سلطتى هنا على العفة والحب.. لدى المال والأرض.. ولست طامعاً فى شيء مما فى أيدى الناس..».

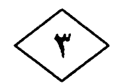
انقضّ إبراهيم على رأس توفيق بك يقبلها ربت العمدة على كتفه قائلاً:

- «تمنيت أن يكون إلى جوارى رجل مثلك».

- «وأنا طوع أمرك.. فى أية لحظة..».

وخرجت قرية شرشابة، وقد بلغتها الأنباء عن بكرة أبيها، تستقبل فارسها المقدام، قاهر الظلم، وباعث الكرامة فى قلوب المساكين والمطحونين، الذين تكالبت عليهم عوادى الأيام السوداء، ومظالم الإقطاعيين، وغدر السلطة، واستغلال الإنجليز، واحتقار الترك.

□□□



تواترت الأخبار عن المعركة التى خاضها إبراهيم عبد اللطيف فى سوق سنباط الكبير، وحاول الرواة فى كل ناحية أن يضيفوا إليها الكثير من الحواشى والتفاصيل، واخترعوا وقائع جديدة، فقيل إن إبراهيم ربط اثنين من العساكر الإنجليز فى السور الحديدى للسوق وأشبعهم ضربًا بالسياط، ونزع عنهم سلاحهم، وقيل أيضًا إنه أمسك بأحد الأتراك الجباة وقيده بالحبال وجرده من الأموال التى كانت معه، بل زعموا أنه أمسك بشيخ الخفراء لدى أبو العز سليم، وصلبه على شجرة كبيرة، ودعا الناس ليسخروا منه، ويعفروه بالتراب، ولقد جعل الحادث برمته -سواء ما حدث أو ما اخترع- من إبراهيم بطلاً شعبيًا يشار إليه بالبنان. وتحوطه الهيبة والتقدير، وسبقته الأنباء، وما أن

وصل إلى بيته، حتى انطلقت زغاريد نسائه الثلاث، ونساء الأسرة فى الحى، وقد استنكر إبراهيم تلك الحفاوة المبالغ فيها، وأكد للجميع أن ما حدث ليس عملا خارقًا، أو بطولة نادرة، كل ما فى الأمر أن ما حدث مجرد استجابة طبيعية لإثارة ظالمة من قوم لا يوقرون الإنسان، ولا يحترمون حقوقه، ويظنون أنهم فوق البشر، وأن لهم الحق -كل الحق- فى أن يفعلوا ما شاءوا دون حسيب أو رقيب، وأن اندحار هذه الفئة الباغية، لا يعنى استسلامهم الأبدى، ورضوخهم للحق، فسوف يعاودون الافتراء، ويستأنفون العدوان عندما تحين الفرصة، وتسنح الظروف، وكان الشيخ عبد القادر الشاذلى يشعر بالقلق إزاء ما حدث، ولهذا فعندما التقى بإبراهيم عبد اللطيف فى اليوم التالى قال له:

- «لا تفتح باب الفتنة يا إبراهيم».

- «بل أحاول إغلاقه».

- «الباب لا يغلق باستعمال العصا».

- «إن عصاى وقفت على الباب لمنع الفتنة من الدخول».

- «قلت لك أن النصيحة أفضل من العصا».

أما عمدة شرشابة محمد بك جمال الدين، فقد استدعى إبراهيم عبد اللطيف، فجأة على عجل، وأحسن العمدة استقباله، وأفسح له مكانًا إلى جواره، ثم قال:

- «أنت تعلم أنى احترمك».

- «علاقتنا طيبة من قديم».

- «أو تعتقد أن أبو العز سليم سينسى ما جرى؟».

- «لا . . . لكننا لا يصح أن نتهاون فى حقوقنا».

تململ العمدة فى مكانه، وبدت عليه أمارات الحيرة، ثم مال هامسًا على أذنه.

- «لقد دمر مجهول عشرة أفدنة من القطن وكلها من أملاك أهالى شرشابة فى «حوض القتيل» انتفض إبراهيم فى دهشة وهتف:

- «ما معنى ذلك؟».

- «إنه الانتقام».

هز إبراهيم رأسه وقال :

- «لابد أن نعرف الفاعل» .

- «قد نعرفه يا إبراهيم ، ولكننا نفتقد الدليل» .

وقف إبراهيم وصاح فى غضب :

- «على الباغى تدور الدوائر» .

دعاه العمدة للجلوس ، ثم قال :

- «من أين يدفع هؤلاء الفلاحون إيجار الأرض؟ سوف يحجز أبو العز سليم على مواشيهم وبيوتهم ، ولن يجدوا ما ينفقون ، وستدور الدوائر عليهم . . والعجيب أن أملاكك لم تمس بسوء . . » .

- «هذا خبث ودهاء ووقيعة» .

- «بل فتنة لا يعلم إلا الله مداها» .

- «لن نترك المجرم يفلت» .

- «إنه الأقوى» .

- «بل نحن أقوى منه» .

- «الفقراء الجياع لا يصمدون فى معركة».

- «بل يصمدون».

- «وحتى لو صمدوا فى البداية، فماذا يفعلون إذا طالت فترة العناء والصراع؟ هل سيأكلون التراب؟إننى أخالفك فى الرأى.. أنا رجل مسئول، ورجال الحكومة للعلم يأتمرون بك، والإنجليز ذراعهم طويلة..».

واشتدت الأزمة، وخاصة أن مزروعات أخرى قد أتلفت فى الليلة الماضية، وخيل إلى الفلاحين أن بطولة إبراهيم عبد اللطيف قد انقلبت عليهم وبالاً وخسرانًا، وأن المستقبل مشحون باحتمالات خطيرة، تحمل فى طياتها الخراب والكوارث التى لا يعلم مداها إلا الله.

عاد إبراهيم إلى بيته مهمومًا محزونًا، لا يدرى ماذا يفعل إزاء هذا التحدى لهؤلاء الفلاحين الفقراء الذين لا حول لهم ولا طول، قالت له البابلية وهما على مائدة الطعام:

- «لماذا لا تأكل؟».

- «كيف يطيب لى زاد؟».

- «يا رجل كل..».

- «الناس لن يجدوا ما يأكلون، بعد أن عصف الفساد بعرقهم وأرزاقهم».

قدم أخوه السيد على وجلس على مقربة منه، وبعد فترة صمت همس السيد على:

- «ولكم فى القصاص حياة».

نظر إليه إبراهيم فى إمعان وقال:

- «لقد فرضوا علينا القتال».

- «لكنك لا تحب إراقة الدماء».

- «العين بالعين..».

وأدرك السيد على ما يقصده أخوه إبراهيم الذى لم يصرح بأكثر من ذلك، وابتسم إبراهيم فجأة، وقال:

- «الآن نستطيع أن نأكل.. مد يدك يا سيد على أنه فطير مشلتت لذيذ الطعم».

كانت ليلة سوداء غاب عنها القمر ، وامتلأت الحقول بأعداد كبيرة من الفلاحين الملتحفين بالظلمة ، وانتشروا فى الحقول الشاسعة التى يمتلكها أبو العز سليم ، وقبيل الفجر عادوا .

كان الناس فى شرشابة والقرى المجاورة يعرفون كل شىء . . لكنهم لم يتكلموا أو يفصحوا عن شىء . .

وفوجئ الناس بمئات من العسكر المسلحين يجوبون شتى الأنحاء ، لكن الملفت للنظر أن كوكبة منهم داهمت بيت إبراهيم عبد اللطيف ، وأطبقوا عليه ، ثم وضعوا الأغلال فى يديه ، كان إبراهيم يمضى فى شوارع القرية على قدميه ، وحوله الجياد التى تحمل الحراس ، وإبراهيم يبتسم مرفوع الرأس ، لا يبدو عليه أدنى اضطراب أو خوف ، ولم يتركه أهل القرية وحده ، بل تجمهروا وراءه ، ولم يتراجعوا حينما تصدى لهم العسكر بالسياط ، حتى الشيخ عبد القادر الشاذلى ركب بغلته ، ولم يتخلف عن متابعة إبراهيم ، وكذلك فعل محمد بك جمال الدين عمدة القرية الذى ركب فرسه ومضى ، ولم يبق فى القرية إلا النساء والأطفال وقليل من الرجال .

فى التحقيق الذى أجرى فى المركز قال إبراهيم:

- «صليت العشاء فى المسجد، وحضرت جلسة الذكر مع الشيخ الشاذلى، وكذلك صلاة الفجر».

قال المأمور:

- «فمن الذى أتلف زراعة أبو العز بك؟».

- «اسألوه..».

- «إنه يتهمك».

- «وكيف لرجل مثلى أن يفعل ذلك كله؟».

- «أنت المحرض..».

- «إيتونى بشاهد واحد على ذلك».

- «سوف نجده حتمًا..».

- «ربما..».

وصمت إبراهيم لحظة ثم قال:

- «ولماذا لم تتحركوا منذ البداية؟».

- «ماذا تقصد يا إبراهيم؟» .

- «لقد أتلفت من قبل مساحات شاسعة من أراضى الفلاحين، وأخطركم حضرة العمدة بذلك . . » .

- «كنا نجمع التحريات . . » .

- «وهل جمعتموها؟» .

- «ليس بعد . . » .

ضحك إبراهيم وقال :

- «مت يا حمار إلى أن يأتيك العليق» .

قال المأمور فى غضب :

- «ماذا تعنى؟» .

- «أعنى أنكم تكيلون بمكيالين» .

- «الحكومة تفعل ما تشاء حسبما ترى» .

- «لو بادرتم بالتحقيق منذ البداية لما حدث ما حدث» .

- «سوف نجد مائة شاهد ضدك» .

- «لن يشهد أحد حتى ولو مزقتم أجساد الفلاحين بالسياط».

- «لماذا؟».

- «ذلك لأنى برىء براءة الذئب من دم ابن يعقوب».

- «فمن فعلها إذن؟».

- «اسألوا أبو العز سليم».

- «إنه يتهمك».

- «لا أظنه جادًا فى ذلك».

وعلى الرغم من الجهود المكثفة التى بذلها رجال الشرطة والنيابة، واستخدام شتى أساليب الضغط والإكراه، إلا أنهم لم يستطيعوا معرفة الفاعلين، أو الاستدلال على المحرضين. وتدخل عمد القرى والكفور، ومعهم الشيخ عبد القادر الشاذلى، وأشاروا على السلطات بأن يبدأوا فترة هدنة قصيرة، ويعطوا فرصة لأهل الرأى والحكمة أن يعالجوا هذه الأزمة الخانقة بشىء من التروى والتفاهم

الودى، مـا دام العنف لم يسـتطع أن يحل المشكلة، ووافق أبو العز سليم على هذا الاتجاه على مضض؛ وذلك لأنه كان فى حـاجـة إلى التقـاط الأنفـاس، وإعادة النظر فيمـا جـرى، والبحث عن وسيلة أخرى ترد له هيبته، حتى يحكم قبضته من جديد، لقد كـان أبو العز عنيفًا بطبعه، يرفض أن يطأطئ رأسه لأية عـاصفة مهما اشتدت، واعتاد أن يصل إلى مأربه بالقـوة، ويـأنف من اللجوء إلى الدهـاء والسيـاسـة، ويعـتبر ذلك ضعفًا مشينًا، واستسلامًا مقيتًا.

واجتمع إبراهيم عبد اللطيف مع أبنائه وأبناء العـمومة، ونصحـهم بأن يتخذوا الاحتياطات الواجبة لحماية أنفسهم وأموالهم؛ لأن المعركة القائمة شرسة، وقد يحاول الأعداء اصطيـادهم فى غفلة، وأمـرهم ألا يذهبوا إلى الحقول إلا وهم يحـملون وسائل الدفاع المناسبة، وأن يفتـحوا عيونهم جـيدًا، ولا بأس من إقامـة نقط مـراقبـة وحـراسـة، وأكـد عليهم أن يعودوا من الحقول قبل أن تغيب الشـمس، وألا يذهبـوا إليـهـا إلا بعـد الشـروق وأن يقللوا من الكلام، ويكثروا من العمل.

أما أبو العز سليم، فقد أخذ يفكر فيما آل إليه الوضع، وأدرك أنه معرض لمزيد من الخسائر ما لم يغير من أسلوبه، ولهذا جمع رجاله وقال لهم: «من اليوم آمركم أن تكفوا أيديكم عن أذى الناس، يخيل لى أن عدونا ليس فى رؤساء العصابات، ولا فى الرجال ذوى الهيمنة والنفوذ، ولكن العداء الحقيقى هو أن يجتمع الناس الفقراء على كراهيتنا، والكيد لنا، إنهم كتلة صماء تندفع دون وعى وتسحق كل ما أمامها، وما لم تفتت هذه الكتلة، فسنظل دائمًا فى خطر، وبداية تفتيتها أن نفرق بينهم وبين أصحاب الكلمة والريادة فيهم.. إننا إذا قدرنا على فعل ذلك فسننتصر.. هكذا حدثنى أحد الأصدقاء والتجار من الإنجليز، وقال لى عبارة تساوى ثقلها ذهبًا «فرق تسد» أى إذا فرقناهم استطعنا أن نفرض سلطتنا عليهم.. أقول لكم يا ويل من يخرج على طاعتى منكم.. ويا ويل من يأتى بتصرف ما دون أن يستأذننى..».

قال «محمد بحراوية» خفيض الرأس، خفيض الصوت:

- «أنت مولانا وسيدنا، وليس علينا إلا السمع والطاعة».

- «بالطبع . . لكن من نطق بكلمة ضارة قطعت لسانه، ومن رفع يده بإساءة سلخت جلده، ومن نظر نظرة فيها طمع وجشع سملت عينه . . ومن خان جعلت لحمه طعامًا للذئاب والثعالب . . أسمعت يا ابن بحراوية؟».

- «نحن عبيدك، وأنت ولى نعمتنا . . .».

انفضَّ الجمع، ولم يبق معه سوى محمد بحراوية، واقترب منه محمد وقال متلعثمًا:

- «كيف نداري الناس ونحن الأقوى».

- «أنت كالجاموسة . . هذه مجرد مرحلة . .».

- «ثم ماذا؟».

قال أبو العز وهو يعض على شفته السفلى:

- «لابد من قتل البلعوطى . . لكن فى الوقت المناسب . .».

ابتسم ابن بحراوية فى سعادة وقال:

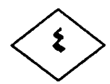
- «أحسنت يا سيدنا».

- «هذا جزاء من يعترض طريقى».

- «عندها يا سيدنا، يركع الفلاحون تحت قدميك، وتعود الفئران إلى جحورها».

- «وتضحك لنا الدنيا من جديد يا ابن بحراوية..».

- «ونضحك عليها يا سيدنا».



اجتاحت الفلاحين موجة من اليأس العارم، أو على الأقل نسبة كبيرة منهم، إن بعض محاصيلهم قد أتلفت دون جريرة، وليس هناك من يساندهم فى نيل حقوقهم، إن معظم الحوادث فى هذه الأيام تقيد ضد مجهول، والسلطة تعتصم بالتراخى العجيب وخاصة فيما يتعلق بحقوق الضعفاء والفلاحين، والأثرياء والأقطاعيون لا يجدون قوة تردعهم، ثم إنهم ليسوا على استعداد للتفريط فى مكاسبهم، ولو كانت هذه المكاسب قد أخذوها ظلمًا وعنوة، وحار الفلاحون ماذا يفعلون، والحاجة ملحة والجوع كافر لا يرحم، ولجأوا إلى الشيخ عبد القادر الشاذلى وسألوه عما يفعلون فقال:

- «إن الله يدافع عن الذين آمنوا.. فإذا صدق إيمانكم أيها الناس، فاضت عليكم نعم الله التى لا تحصى..».

أما حضرة العمدة محمد بك جمال الدين فقد قال :

- «إن ما يهمنى هو استتباب الأمن ، وعندما يحدث ذلك فستكون لدى الفرصة لإعادة الحقوق لأصحابها ، وإن أخطر ما يهدد الأمن هو أن يحاول البعض استخلاص حقوقهم بأيديهم . . عندئذ تعم الفتنة» .

لكن البلعوطى إبراهيم عبد اللطيف فقد قال :

- «روى أسلافنا قولا له معنى» .

- «ما هو؟؟» .

- «عجبت لمن لا يجد قوت يومه ولا يخرج بسيفه . . » .

- «أنت تعلم يا إبراهيم أننا فقراء . . ضعفاء لا حول لنا ولا قوة . . » .

- «بل أنتم الأقوى . . » .

لم يكن إبراهيم عبد اللطيف يعترض على نصيحة الشيخ الشاذلى ، ولا قول حضرة العمدة ، ولكنه تساءل ماذا بعد ذلك؟ إن من مات دون عرضه فهو شهيد ، ومن مات دون

ماله فهو شهيد، وهذا العصر عصر الشهداء، وكيف لا يكون كذلك، وقد استبد الإنجليز، وسيطروا على سلطان البلاد، وتحكموا فى رقاب العباد، أما ملاك الأراضى والنظار وأتباعهم وأشياعهم، وكذلك رجال المال والأعمال، فقد استغلوا، ولم يعد للرحمة والعدل مكان فى قلوبهم. . نحن فى أيام ساد فيها قانون الغابة، فكيف تحلو الحياة، ويطيب لنا فيها المقام؟

إن أكثر من ثلاثة أرباع الفلاحين مرضى بالبلهارسيا والأنكلستوما والملاريا وفقر التغذية والحمى وغيرها، إنهم لا يجدون الدواء ولا الغذاء، ويموتون موتًا بطيئًا، يلجأون إلى كتاب الرقى والتعاويذ، وإلى العطارين وخبراء الوصفات الشعبية، والأطباء لا يوجدون إلا فى أماكن نائية، فما بالك وهم لا يملكون أجور النقل والأطباء والمواصلات وثمن الدواء؟

القطن انخفضت أسعاره، وقلّ محصوله، والآفات انتشرت فى المحاصيل، ويقول بعض العارفين إن هذا من

غضب الله علينا، ولو أطعناه لأكلنا منه فوق رؤوسنا، ومن تحت أرجلنا. . والتقوى هى طريق الرزق الحلال. .

كان إبراهيم عبد اللطيف قلقًا غاية القلق بسبب سوء الأحوال، وتوالى الأحداث فى المنطقة، وهو يؤمن بأن النظام فى البلد نظام فاسد، وأن ذلك الفساد لا ينجب إلا الشر والفوضى، وكان يردد: «اثنان لا ينامان؛ الجائع والخائف» ثم يتبع ذلك بقوله: والناس هنا جائعون خائفون، فكيف ينامون، ولاشك أن استمرار هذا الوضع سيورث الناس الجنون، بل والموت، وكان أبى عثمان يقول دائمًا. . النوم صحة. . ونوم الظالم أيضًا عبادة. . وفى هذه الأيام كسدت الأسواق، وقلت حركة البيع والشراء، على الرغم من أن الفلاحين كانوا يتسابقون إلى بيع مواشيهم لينفقوا على عيالهم ويكسوهم، فلله الأمر من قبل ومن بعد.

●●●

وجدّت أحداث غريبة لم يكن يتوقعها أحد، فقد كانت أفواج الجياع يخرجون فى الليل لينهبوا من حقول الأغنياء وحدائقهم ما يسد الرمق، بل كانوا يسرقون الأغنام والماعز

والطيور . وكان لهذا الأمر صدى كبير على مستوى المركز والمديرية كلها، وعجزت الحكومة المحلية عن تحديد الاتهام نظرًا لشيوعه فلم يكن من المعقول أن تعتقل الغالبية العظمى من الناس بحجة النهب والسلب، بل اكتفت بإرسال العسكر فى مختلف الأنحاء، تضرب الناس عشوائيًا، وتهدد كل من يخرج ليلاً بالويل والثبور، وجن جنون أبو العز سليم وركب فرسه وذهب إلى توفيق الخشن عمدة سنباط، وتدارس معه الوضع، وكان توفيق بك مطمئنًا إلى حد كبير؛ وذلك لأنه لم يتعرض لمثل تلك الاعتداءات إلا فى حدود ضيقة. وكان معروفًا عنه المبادرة بتقديم المعونات والصدقات للمحتاجين، ولم يكن يترك مشكلة دون حل، ومن ثم أحبه الناس، وتسابقوا فى تقديم الخدمات له، والمحافظة على أملاكه ومزروعاته، كما أنه كان قوى الشكيمة يهابه اللصوص وقطاع الطرق إلى حد كبير .

قال أبو العز لتوفيق بك :

- «لم يعد هناك مجال للصبر، الفلاحون يأكلوننى اليوم وسوف يأكلونك غدًا . . ويجب أن نكون يدًا واحدة، حتى

نقضى على هذا التمرد الذى لم يعرفه آباؤنا وأجدادنا»

تنحنح توفيق بك وقال :

- «تريد أن تعقد حلفًا» .

- «بالضبط . . يشترك فيه كل أثرياء المنطقة» .

- «مثل حلف بريطانيا ضد ألمانيا» .

- «نعم . . ولم لا؟» .

- «وما هى مبادئ هذا الحلف» .

- «تحطيم الرؤوس التى ترتفع ضدنا» .

- «أليس من المحتمل أن يكونوا على حق؟» .

- «الحق دائمًا فى جانبنا . . إنهم جهلة . . حمير . . لا يفهمون شيئًا» .

- «لكنهم بشر يا أبو العز» .

- «لا . . مستحيل . . لقد نهبوا أرضى» .

- «وأنت أتلفت مزروعاتهم من قبل . .» .

- «ولماذا أفعل ذلك؟» .

سدد إليه توفيق بك نظرات صائبة وقال :

- «إننى يا أبا العز أعرف كل ما يجرى على هذه الأرض . . إذا أطعمت عبيدك يا أبا العز ضحوا بأرواحهم من أجلك . . لسنا سادة إلا بهم . .

- إنهم لا شىء . . لقد ولدنا سادة . . وسنبقى سادة . . » .

تنهد توفيق بك قائلاً :

- «الخديوى عزلوه . . والسلطان أصبح ملكًا . . والدنيا تتغير . . ويجب أن نفكر بروية ، ونتخذ السياسة المناسبة . . المهادنة أفضل من التحدى» .

قال أبو العز سليم فى غضب :

- «المهادنة ليست من طبعى . . لن أكون أبو العز سليم إذا فعلت ذلك . . الموت ولا هذا . . أراد توفيق بك أن يحسم الأمر فقال :

- «الكل منا طريقة» .

- «أتتركونى لتأكلنى الكلاب الضالة» .

- «يمكنك أن تروضهم».

- «هذا ضعف».

- «بل سياسة . . فضلاً عن أنه عدل . . ».

وقف أبو العز سليم فجأة، وعيناه تقدحان شررًا وقال :

- «إبراهيم عبد اللطيف هو الذى أثار الناس ضدى».

- «إننى أعرفه . . رجلاً لا يغدر . . ».

- «بل رجل حاقد يحرض الفلاحين. ويبدو لنا وكأنه ملاك طاهر . . ».

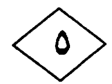
- «هذه أمور يجب أن يتحقق منها».

وخرج أبو العز سليم من لدن توفيق بك خاوى الوفاض، أو دون أن يحصل على أى وعد بالمعونة والمساندة، ووصل إلى دواره غاضبًا، وكأن قد ركبه مائة عفريت . . ونادى رجاله، وقال فى حنق ورعونة :

- «من يأتينى برأس البلعوطى؟ وله مائة جنيه . . ».

قفز محمد بحراوية من بين الرجال قائلاً :

- «أنا آتيك به . . ».



كان من الواضح أن إبراهيم يخص زوجته البابلية بقدر كبير من الرعاية والاهتمام، وهذا بالطبع على حساب زوجتيه الأخريين، وقد استطاعت البابلية بجمالها وذكائها ورقتها أن تجعله ينصرف إليها فى معظم الأوقات، مما أثار حفيظة مسعدة ومبروكة، ففكرا فى أن يجابها الموقف بشىء من الحزم، على الرغم من تخوفهما من غضب إبراهيم ونقمته، وعندما ساورتهما الهواجس قالت مبروكة مكشرة عن أنيابها:

- «لن نخسر شيئًا، فهو لو غضب، فسيقاطعنا».

- «وهو يفعل ذلك الآن».

- «كرامتنا ترفض ذلك الوضع، والنسوة فى الشارع

يسخرن منا، بل ولا يحترمن إلا مباركة، وأصبح اسم البابلية على كل لسان».

وعادت مبروكة تقول فى أمل:

- «إبراهيم رجل يحب الحق».

- «إن ألاعيب البابلية تذهب عقله».

قالت مبروكة هامسة:

- «حذار أن تقولى ذلك؛ لأنها لو بلغت مسامع إبراهيم لفعل بنا الأفاعيل..».

- «وهل يفعل أكثر مما فعل؟».

- «إبراهيم يفهم كل شىء يا مسعدة، وليس فى حاجة إلى من يوجهه».

- «لكن الذى يفعله ليس عدلاً».

- «إن ما يفعله هو العدل».

وأصرت مسعدة أم أولاده أن تفاتحه فى الأمر.. ولاشك أن أولادها الخمسة سوف يناصرونها، فضلاً عن

أنها من عائلة أو خليفة، وهى عائلة كبيرة فى القرية، ولها صوت مسموع، وأخيراً اجتمعت المرأتان وجاءاه فى غيبة البابلية قالت مبروكة وهى ترتجف:

- «إن لنا حقوقًا عليك يا سى إبراهيم».

ابتسم فى شىء من المرح وقال:

- «ماذا وراءك يا عجوز خيبر».

استشاطت غضبًا:

- «أأنا عجوز؟».

- لكنك مازلت سمراء جميلة».

سرها ذلك الإطراء، فانتهزت الفرصة قائلة:

- «ولماذا تهجرنى؟».

- «حاشا الله.. إنها مجرد انشغالات مؤقتة».

- «انشغالات بالبابلية؟».

- «بل بأمور الناس، أنت تعرفين ما يجرى هنا».

دخلت مسعدة، وقالت فى انفعال:

- «وأنا؟».

- «احمدى الله.. لقد رزقك الله بالبنين والبنات».

ثم اشار بيمناه فاردًا أصابعه:

- «خمسة فى عين العدو يا مسعدة.. والمفروض أن تنشغلى بتربيتهم ورعايتهم..».

- «أنا فى الأول والآخر زوجتك.. أم عيالك».

قال فى استعطاف:

- «البابلية حرمت من الأولاد».

تدخلت مبروكة قائلة:

- «إن الله يعطى كل إنسان على قدر نيته».

رد عليها إبراهيم بعد أن استعاذ بالله وحوقل وبسمل:

- ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا﴾ [الشورى: ٤٩، ٥٠] صدق الله العظيم.

هتفت مبروكة فى شماتة :

- «إذن ما سر استمساكك بالأرض المالحة المقفرة التى لا تخرج زرعًا . . » .

سمعتها البابلية وكانت قادمة عن كثب وصاحت باكية :

- «أتعايريننى يا مبروكة . . هذا أمر الله . . منك لله . . » .

وصاح إبراهيم فى حزم غاضب :

- «اغربى عن وجهى يا طويلة اللسان وإلا قطعته . . » .

ولما همت بالخروج وصاح بمسعدة هى الأخرى :

- «اتبعيها يا أم كامل . . يا إمّعة . . » .

وأسرعا يتعثران فى خوفهما لكن مبروكة قالت وهى تهرول :

- «لقد أمر الله بالعدل بين الزوجات» .

رد إبراهيم :

- «أعرف ذلك يا منحوسة . . أنت دائمًا تثيرين الفتن والخلافات فى البيت . . » .

- «إذا كنت تعرف ، فلماذا لا تطبق ذلك؟

- «إبراهيم يعرف حقوقه وواجباته يا غراب البيت» .

واكفهر الجو فى بيت إبراهيم ، أولاده خرجوا ، وكذلك فعلت البنتان ولجأت كل من مبروكة ومسعدة إلى غرفتها ، أما البابلية فقد جلست على مقربة من إبراهيم تذرف الدموع وقد احتقن وجهها وعيناها ، قال إبراهيم مخففًا عنها :

- «تزدادين جمالاً وروعة حتى فى لحظات الألم» .

- «لقد جرحتنى مبروكة جرحًا غائرًا . . » .

اقترب منها إبراهيم وأمسك بيدها قائلاً :

- «أتحبين أن تنتقلى إلى بيت خاص بك وحدك» .

صرخت فى رعب :

- لا . . . لا . . . سأموت . . . » .

- «ماذا جرى؟» .

- «لن أستطيع الافتراق عن أولادك يا إبراهيم ، ذلك لأنى أحبهم ، ولا أستطيع العيش بدونهم ، إنهم أولادى . .

لقد عوضنى الله بهم عن الخلف . . . لا أطيق أن أبعد عن كامل وعبد الفتاح وأحمد . . » .

ولما سكتت قال لها إبراهيم :

- «ومحمد؟ !» .

- «تكفيه أمه مبروكة ، إنه يعاملنى بكراهية ، ويرفض حتى مجرد تعطفى عليه ، أو الحديث معه . . » .

قال إبراهيم :

- «إذن سأنقل مبروكة إلى مسكن آخر» .

- «ومسعدة؟» .

- «ستبقى معنا ، إذا ذهبت عنها مبروكة ، فيستقيم حالها ، وتكف عن إثارة المشاكل ؛ وذلك لأنها دائمًا تستغل طيبة قلبها ، وتزرع فيها الشكوك . . » .

- «أترسل بها إلى المنفى مثلما فعل الإنجليز بعرابى منذ سنوات؟» .

قال إبراهيم ضاحكًا :

- «ما أبشع الفارق بين عرابى ومبروكة ! ! إنها ستكون على مقربة منا ، وسأبيت عندها ليلة كل أسبوع . . » .

كان خروج مبروكة إلى دار صغيرة جهزها لها إبراهيم مثار جدل ولغط، وخيم على البيت جو من التوتر. محمد الابن الثالث لإبراهيم قرر أن يعيش مع أمه، وطلب من أبيه أن يعطيه حقه وحق أمه فى الأرض حتى يستقل بحياته ويتزوج، وصاح إبراهيم فى غير قليل من الغضب وقال:

- «أترثنى حيًا يا ابن مبروكة؟».

- «أطال الله عمرك يا أبى.. ! إننا نعيش فى خيرك وحمايتك.. لقد أردت أن أخفف عنك..».

هز رأسه فى أسى وقال:

- «أعرف أن أمك قد وسوست لك.. أنا لست عمدة ولا حاكمًا على ولاية.. ولكن بقدراتى الذاتية، وسمعتى وعقلى فوق الحكام والعمد.. الناس يطلقون على هذه المنطقة كلها مملكة البلعوطى.. وبيتى هو مملكتى الصغيرة، ولن أسمح بالانقسام أو التفتت ما دمت حيًا.. وموضوع نقل أمك إلى بيت قريب لا يخرجها عن ولايتى ولا طاعتى.. أنا هناك.. وأنا هنا.. كما أن لى وجودى فى

كل قرية وكفر فى هذه المنطقة . . هل فهمت يا محمد يا ولدى؟» .

طأطأ محمد رأسه ، وقال :

- «السمع والطاعة» .

وفى هذا الوقت دخلت مسعدة باكية حزينة وقالت :

- «أتريدنى أن أخرج يا إبراهيم؟» .

- «إلى أين يا امرأة؟» .

- «إلى أين يا امرأة؟» .

- «إلى بيت آخر مثل مبروكة . . أو إلى دار أهلى؟» .

ضحك إبراهيم فى سخرية وقال :

- «أنت الأم الكبرى هنا يا مسعدة ، فلن تخرجى من هذا البيت إلا إلى القبر . . .» .

- «رأيتك تخرج مبروكة» .

- «مبروكة شىء . . . وأنت شىء آخر . . والبابلية تحبك» .

نهضت البابلية، وأسرعت ناحية مسعدة، ثم طوقتها بذراعيها وأخذت تقبل رأسها ووجهها وتقول :

- «نحن أختان يا مسعدة، ألا تشعرين بذلك» .

- «يعلم الله كم أحبك يا مباركة . . » .

وعادت الأمور إلى نصابها . . واستقرت الأحوال، وساد جو من الهدوء بعد انتقال مبروكة ووحيدها محمد، ولم يعد هناك نوع من الصراع أو الغيرة بين مسعدة والبابلية؛ لأن مسعدة كانت طيبة القلب متسامحة، كما أن البابلية كان لها كل ما تتمناه من مال وحب وتقدير، وكان أولاد مسعدة جميعًا يحبونها حبًا جمًا، ويطلبون منها كل ما يريدون، ويكادون لا يطلبون شيئًا من أمهم مسعدة، بل كان ينادون البابلية دائمًا بكلمة «يا أمى»، ويقول لأمهم الحقيقة مسعدة «يا أم كامل» .

وذات يوم تلفت إبراهيم حواليه وقال :

- «أين ولدى عبد الفتاح؟ إنى لم أره منذ أيام» .

قالت البابلية :

- «إنه يستيقظ من نومه متأخرًا؛ لأنه لا يعود من الخارج إلا بعد الفجر . . » .

قال إبراهيم فى شىء من عدم الارتياح :

- «كالخفافيش يختفى بالنهار، ويطير فى الليل» .

- «إنه شاب . . » .

- «وهل هذا مبرر يا بابلية . . ماذا يفعل طوال هذه الساعات؟ المفاسد تنتشر فى كل مكان . . » .

- «إنه حافظ للقرآن، ويتلقى العلم فى الجامع الأحمدى، وعبد الفتاح طيب الأخلاق» .

وألح إبراهيم على إيقاظه وإحضاره إليه، وقام عبد الفتاح من نومه منحرف المزاج، لكنه لم يستطع أن يبدى تبرمًا أو اعتراضًا، وحينما مثل بين يدى أبيه سأله :

- «كيف حالك فى العلم» .

- «الحمد لله . . » .

علق إبراهيم فى سخرية :

- «الذى لا يحمد على مكروه سواه . . » .

ولما لم يرد عبد الفتاح قال أبوه :

- «إنى لم أرك تمسك كتابًا منذ أن أتيت . . » .

ثم اعتدل فى جلسته وقال :

- «لكن قل لى ، لماذا أتيت وتركت طنطا؟» .

- «المعهد مغلق بسبب المظاهرات . . » .

- «ولماذا المظاهرات . . » .

- «ضد الإنجليز . . » .

- «ألا يمكن الجمع بين المظاهرات والتعليم؟» .

- «ممكن . . » .

- «لقد حيرنى أمرك يا عبد الفتاح . . أردتك عالمًا تعظ وتفتى ويشار إليك بالبنان . . وأردت أن يقول الناس أن عائلة عبد اللطيف قد أنجبت عالمًا جليلاً ، يرتقى المنابر ،

ويكون له عمود من أعمدة العلم فى الأزهر . . ويكتب المؤلفات فى الفقه والتفسير والسيرة والبلاغة والنحو . . لكنك خيبت أملى فيك يا ابن مسعدة الطيبة . . » .

تنبه عبد الفتاح جيداً إلى ما يقوله أبوه ، واجتاحته موجة مباغتة من الحماسة ، وقال فى ثقة :

- «إننى يا أبى لا أكف عن الإطلاع . . وإذا سمحت لى فسأخطب الجمعة القادمة فى المسجد الكبير . . » .

طرب إبراهيم لهذا الخبر ، وأشرق وجهه بالفرح ، وزغردت البابلية فى سعادة ، وفى المساء اجتمعت أسرة عبد اللطيف من شتى الدور عندما علموا بالخبر ، وأخذوا يعدون العدة لليوم الموعود الذى سيرتقى فيه عبد الفتاح المنبر لأول مرة ، وتواصوا بينهم بأن يلبسوا أفخر الثياب ، ويصحبوا أطفالهم معهم ، ولا بأس من أن يستعدوا بالعصى والأسلحة المختلفة ، مخافة أن يحاول بعض الحاقدين أو العلماء المتحذلقين إفساد اليوم الذى يعتبرونه يوم عيد . . ومنذ العاشرة من صباح يوم الجمعة توافد الخلق على المسجد

لا من شرشابة وحدها، ولكن من القرى والكفور المجاورة، واضطر خدم المسجد لفرش الحصير فى فناء المسجد وبعض الشوارع المجاورة، واضطر العمدة محمد بك جمال الدين أن يكلف بعض الخفراء بالحفاظ على الأمن، فلم يكن هذا غريبًا ذلك لأن تشاحن العلماء بسبب بعض الخلافات الفرعية شائعًا بين المالكية والشافعية والحنابلة والحنفية، وكل صاحب مذهب يتشبث بفكره، وكان عبد الفتاح يدرس المذهب الشافعى، وهو المذهب السائد فى المنطقة.. وقبيل الأذان قدم إبراهيم عبد اللطيف وشقيقه السيد على، ورؤس أسرة عبد اللطيف وهم من الفلاحين الأصلاء، وأمامهم يسير عبد الفتاح أو الشيخ عبد الفتاح لابسًا عمامته المنسقة المحبوكة والجبة والقفطان، ودخل المسجد ترشقه النظرات من كل مكان، وتتابعه إلى أن بلغ المحراب، وصلى فيه ركعتين تحية المسجد..

ارتجل عبد الفتاح الخطبة دون أن يحمل ورقة، ولعله حفظها من ديوان مطبوع للخطب المنبرية، بل هو الأرجح، لكن الخطبة هزت مشاعر الناس لما فيها من أحاديث قدسية

مؤثرة، وقصص تأخذ بمجامع القلوب، واستشهادات من الشعر تهز النفوس هزًا حتى ولو لم يفهم الناس معانى بعض مفرداتها . . وما ان انتهت الصلاة، وخرج الناس من المسجد حتى انطلقت الزغاريد على الأسطح المجاورة، لقد تسللت النسوة من آل عبد اللطيف، وفيهم مسعدة والبابلية، برغم أنهم لا يغادرون البيت نهارًا، إلى البيوت المجاورة للمسجد، وشاركوا فى الزغاريد التى أبهجت القلوب . . وقد دهش إبراهيم عبد اللطيف إذ وجد العمدة نفسه محمد بك، يخرج من المقصورة الخلفية للمسجد ومعه الشيخ عبد القادر الشاذلى وبعض الأعيان وأخذوا يهنئون الشيخ إبراهيم، ويثنون على خطبة ولده عبد الفتاح . .

كان يومًا من أسعد أيام البلعوطى . . إنه يسعد بالانتصار العلمى أكثر من الانتصار بالعصا . .

لكن تشاء المقادير إلا أن تكون حلاوة اليوم الجميل، فقد انتحى محمد بك جمال بإبراهيم وقال هامسًا فى أذنه :

- «إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك» .

ارتجل عقل إبراهيم وقال :

- «أنا؟؟ لماذا؟؟؟» .

- «يظنون أنك محرك القلاقل» .

- «وأنت يا بك . .» .

- «أعرف أنك رجل حر شريف لا تخاف فى الله لومة لائم، ولهذا أحببتك . . ليكن الأمر سرًا بيننا . . خذ حذرك واحرص على عيالك . . واعتكف فى بيتك أيامًا . .» .

جفف إبراهيم عرقه وقال :

- «أشكرك يا بك . .» .

- «لا شكر على واجب . . . وأنا أحبك» .

نظر إبراهيم إلى بعيد، وهو يعض على شفته السفلى ثم قال له :

- «لقد تحررت منذ أن قتلت الموت فى نفسى» .

- «نحن جميعًا نخاف يا إبراهيم . .» .

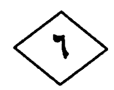
- «نعم . . خوف الحذر، لا خوف الجبن والذل . .» .

ومـضى إبراهيـم فى طريقـه إلى المنزل، وحـوله أهـله، وعبـد الفتـاح مـعه، وكـان يتلقى التهـانى مبتـسمًا شـاكـرًا لله . . » .

ثم مال على عبد الفتاح وقال:

- «لقد رفعت رأسى . . العلم هو أعظم ما فى الدنيا، لو بعت كل مـا أملك لأنفـقـه على تعليـمك لما سـاورنى أقل هاجس من الندم . . سافر غدًا إلى معهدك وخذ ما تشاء من المال والزاد . . بارك الله فيك ورعاك» .

□□□



لم يرق إبراهيم عبد اللطيف دم إنسان فى حياته، فهو يقدس الروح، ويؤمن أنها حق الله وحده، ولا يأخذها إلا هو، الكلمة هى سبيله إلى قلوب الناس، والحركة الواعية المحكمة هى أسلوب فى الرفض والتمرد، سلاحه هو حب الناس وطاعته له، وعصاه هى ملاذه الأخير إذا خاب المنطق، وفشل الإقناع، العصا التى تؤلم ولا تجرح، إنه دليل قوة، ووسيلة تأديب، وإنذار لعقاب يمكن أن يكون أكبر، وكثيرًا ما تأتى العصا بما تعجز البنادق عن تحقيقه، ذلك أن ضحايا البندقية لا يمكن أن يعودوا إلى الحياة، لهذا فإن نتائجها الوخيمة أبدية لا يمكن تداركها، وإبراهيم يؤمن بسياسة الباب المفتوح، ولا يريد أن يغلق الأبواب نهائيًا حتى فى وجه ألد أعدائه، وكانت سياسته تلك نابعة من ثقته

بنفسه وإيمانه بحكمته، وهو يعلم أن العصا هى الأخرى مرفوضة من كثيرين من الشيخ عبد القادر الشاذلى مثلاً، ومن العمدة، ومن رجال الإدارة فى المركز والمديرية؛ لأن الحكومة هى الممثلة للسلطة وأولى الأمر، وليس لأحد الحق فى أن يستعمل القوة فى الدفاع عن نفسه وجماعته، حتى ولو كان مظلومًا. ولقد سأل عمدة سنباط توفيق بك الخشن إبراهيم عبد اللطيف ذات مرة قائلاً:

- «ما معنى البلعوطى؟».

قال إبراهيم باسمًا:

- «إننى نسر أحلق بجناحين هما القوة والعدل».

«قوتك مهما كانت يا بلعوطى محدودة».

- «لكنها كافية يا بك».

- «ولا تعتمد على فرقة أو جماعة منظمة مدربة».

- «للناس القدرة على التنظيم التلقائى عند الأزمة».

- «لكنهم فى نفس الوقت قد يتفتتون لسبب طارئ».

- «سيعودون إلى التجمع مرة أخرى».

- «وكيف تصدر إليهم أوامرك يا بلعوطى؟».

- «هم الذين يصدرون الأوامر.. إننى أتعلم منهم.. وأستلهم آمالهم وأحلامهم».

وأصبح الخطر محدقًا بإبراهيم عبد اللطيف بعد أن أخبره العمدة محمد بك جمال الدين بأن الملأ يأتمرون به ليقتلوه، وذاع الخبر بين الناس، وأخذوا يتسابقون إلى حراسة بيته وغيطانه وحتى بهائمه، وكانوا يبدون فى ذلك حماسة منقطعة النظير، أصبحت حياة البلعوطى رمزًا لآمالهم، ومرتبطة بحياتهم، أصبح مثل الماء والهواء لا يمكن الاستغناء عنه، وهذا الشعور جعل إبراهيم سعيدًا ومستعدًا للتضحية من أجلهم، إنه لا يريد مجدًا شخصيًا، ولا كسبًا ماديًا يقتصر عليه وعلى أسرته، فلديه ما يكفيه، من عائد الزراعة والتجارة، وإن كانت تجارته فى الفترة الأخيرة قد تأثرت لحد كبير، بسبب عدم خروجه إلى الأسواق بنفسه، واكتفى بإنابة عدد من رجاله وشركائه فى هذا الأمر.

وأخذت وفود من القرى تأتى إليه فى قرية شرشابة تعاهده على التحالف معه، والعمل على حمايته من أية مؤامرات أو أضرار مرتقبة، وكانوا يضعون بين يديه المال والرجال، ومع ذلك فإن هذا التأييد الجارف لم يغرّه أو يفتنه، بل كان يقول لهم:

- «ليس منا من يسفك دمًا . . . وليس منا من يبدأ أحدًا بعدوان منهما كان عدوًا لنا . . . إنا سنخسر كل شىء إذا استسلمنا لهواجس الشيطان، ويستطيع خصومنا أن يجدوا الفرصة المواتية للنيل منا، وعندئذ يتخلّى عنا الله، وينْفض عنا الناس، ونخسر الدنيا والآخرة . . الشجاع هو من يلوّح بالعصا ولا يستعملها، ويصل إلى هدفه دون أن يريق دمًا . . إننى لا أخاف الموت، ولا أجبن من التضحية، ولكن أخاف الله رب العالمين . . وأخاف عليكم أن يمسكم أحد بسوء . . أيها الناس إن البلعوطى ليس داعية حرب، ولكنه ناشر للحب والسلام والعدل . . لست زعيم عصابة، أو قاطع طريق، أو قائدًا إنجليزيًا . . ».

ويستغرب الناس أمر البلعوطى فى كل قرية وكفر، ويتساءلون: من علّم هذا الرجل تلك الكلمات، ومن الذى

أورثه الحكمة والتعقل؟ إن أعصابه -كما يقولون- من حديد، وثقته بالله وبالنفس لا حدود لها، وتجاهله للموت المحيق به أمر عجيب، واعتقد البعض أن البلعوطى مغرق فى التفاؤل، مبالغ فى حسن النية، وهذا خطأ جسيم فى عالم مملوء بالأفاعى والذئاب والثعالب، لكنه كان يفند انتقاداتهم له، ويشير إلى نقطة مهمة وهى أن أعداءه لا يخوضون المعركة بأنفسهم، بل يفوضون أنصارهم وأجراءهم، وهم جيش من المرتزقة لا يستطيع أن يحقق نصرًا حاسمًا، أو يلحق بعدو هزيمة قاطعة . . .

حينما التقى إبراهيم بالشيخ عبد القادر الشاذلى فى ليلة من ليالى الذكر العطرة قال الشيخ :

- «أنت على حق يا إبراهيم . . وأنا أدعو الله لك بالنصر» .

- «هذا ما كنت أتمناه . . » .

- «علمتنى الأحداث أنك رجل طيب تخاف الله . . . » .

- «نحن نعيش فى رحاب توجيهاتك».

- «ولينصرن الله من ينصُره».

فى أحد الأيام خرج عند الفجر، ومعه أجيران لرى الأرض فى «حوض القتيل»، كانت العتمة تُلفِّع الحقول وكامل ومعه الرجلان يضعون الطنبور فى مكانه الصحيح، وانقضّ رجل من قلب العتمة قاصداً كامل، ثم هو بفأس على رأسه، فأصابت جانبًا منها، وانطلقت استغاثة الرجلين، لكن كامل صاح بهما أن يمسكا به قبل أن يفر، ومن سوء حظ الجانى أنه وهو يحاول القفز عبر المجرى المائى الصغير سقط فيه، كما سقطت فأسه، فأمسك به الرجلان، وأحضر كامل الجريح حبلاً وقيده به، ثم اشتركوا فى وضعه فوق الحمار، ولاذوا بالفرار صوب القرية، بعد أن ربطوا منديلاً على فمه ليمنعوه من الصياح.. فى بيت إبراهيم عبد اللطيف، تجمع خلق كثير، وأفاق إبراهيم من نومه، ثم نظر إلى الرجل الملقى فى رحبة البيت مقيداً، وعيناه تعبران عن رعب قاتل:

- «من أنت يا ولد؟».

- «عبدك راغب المغربى».

- «من كفر شبرا قلّوج؟».

- «بل من كفر الديب».

- «لماذا فعلت فعلتك؟».

- «منه لله . . . محمد بن بحراوية».

التفت إبراهيم إلى الرجال فى بيته وقال:

- «فكوا وثاقه، وأطلقوا سراحه».

صاح ابنه كامل:

- «ألا يعاقب على فعلته يا أبى؟ لقد كاد يقتلنى لولا لطف الله».

- «عقوبته أن يعود إلى بيته . . .».

ومشى الشاب راغب المغربى فى شوارع شرشابه، وقد أسفر الصبح عن وجهه، كان يخطو ذليلاً خفيض الرأس،

واجم النظرات، واللعنات تطارده من الرجال والنساء والأطفال، كان البعض يبصق عليه، وآخرون يقذفونه بروث البهائم، لكن يدًا لم تمتد إليه بسوء . . .

قال إبراهيم لولده كامل:

- «عد إلى الحقل لتروى الأرض».

واندهش كامل الجريح، وقالت البابلية:

- «لا داعى لهذا العناد يا إبراهيم، إن ابنك كان ينزف».

قال فى إصرار:

- «سيعود إلى الحقل ليتم مهمته . . .».

ركب كامل حماره، وهز رجليه، فانطلق الحمار، وعلم الناس بالخبر، فاندفعوا وراءه ليحموه من أى خطر متوقع، فدعاهم إبراهيم إلى الرجوع، لكنهم كانوا يعرفون واجبهم، وسوف يعصون إبراهيم هذه المرة، وضاقت الحقول فى «حوض القتيل» بالناس، منهم من ذهب متحديًا؛ وذلك لأن هذا الحوض ملاصق لأرض أبو العز

سليم الواسعة، ومنهم دفعه الفضول ليرى ما قد يجدّ من أحداث، والفريق الآخر ذهب حبًا لإبراهيم وبنيه، واستطاع كامل أن ينهى مهمته فى الحقل بسلام فى وقت قصير.

ازداد تعاطف الناس مع إبراهيم، الذى كاد يفقد فلذة كبده من أجل قضيته وقضيتهم فليست المشكلة الشخصية فحسب مع أبو العز سليم ولكن المشكلة هى معاناة المستأجرين الفقراء وكذلك الأجراء الذين ضاقوا ذرعًا بمظالم أبو العز، والحقيقة أن الناس نظروا حولهم فلم يجدوا أخلص وأصدق من إبراهيم، إنه معهم دائمًا فى كل الأحوال والظروف، حتى الفرقاء والمتخاصمون فى القرى المجاورة يفدون إليه لعرض قضاياهم، ويقبلون منه الحكم الذى يصدره عن طيب خاطر، وإذا حكم ضد طرف بغرامة مالية للطرف الآخر، ولم يكن لديه المال اللازم لذلك، بادر إبراهيم بجمع التبرعات له، ولربما تنازل الخصم عن هذه الغرامة إكرامًا لإبراهيم الذى يحبه الجميع.

لم تنم عين إبراهيم فى تلك الليلة التالية للاعتداء على ولده، فقد كاد يفقده لولا أن الله تداركه بعنايته، وماذا كان عليه أن يفعل لو مات كامل لا قدر الله؟ إنه سؤال خطير، فهل سيخرج عن خطته، ويطلق السماحة والسلام بالثلاثة إلى الأبد، ويرفع سلاحه ليأخذ بثأره؟ هل كان سيستسلم للكارثة ويجلس فى بيته باكيًا كالنساء؟ هل يرفع شكواه إلى النيابة، وينتظر سنوات حتى تحكم المحكمة بالسجن بضع سنوات ضد الجانى؟ الواقع أن إبراهيم كان منزعجًا لما جرى، فهو لا يريد أن يتخلى عن أسلوبه الذى آمن به، وأشاعه بين الناس، لكنه ليس معنى ذلك أن يفرط فى دمه ودم أبنائه الأربعة، ومع هذه الحيرة القاتلة، فإن إبراهيم ظل معتصمًا بالصبر والحكمة واثقًا أن الله لن يخذله، لكن الناس اجتاحتهم موجة عارمة من الغضب، وأخذوا يدبرون للقضاء على محمد بن بحراوية الذى أطلق عليه الشيخ عبد القادر الشاذلى اسم «مخلب الشيطان»، واندهش إبراهيم من شدة غضب الشيخ الشاذلى الذى خرج عن تسامحه المعهود وقال:

- «ابن بحراوية والمغربى لابد أن يعاقبا . . . ﴿وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ [المائدة: ٤٥] كما فى كتاب الله . . . وعدم تطبيق أحكام الشريعة سيغرى السفهاء بارتكاب المزيد من الجرائم» .

وتحدث الشيخ فى ذلك مع العمدة محمد بك جمال الدين اتصل بدوره بعمدة «كفر الديب» طالبًا تسليم المتهم «راغب المغربى» وحدث خلاف بين العمدتين حول هذا الموضوع، لأن عمدة كفر الديب رأى أن يؤدب ابن بلده بطريقته، أما محمد بك جمال الدين فقد وجد أن القضية ذات جذور، وأن ابن بحراوية المحرض هو مطلوب أيضًا. ولابد من تقديم كل من تطاله شبهة إلى النيابة، حتى يطمئن الناس على أرواحهم وأرزاقهم، ويسود السلام والأمان، وأرسل عمدة كفر الديب إلى عمدة شرشابة رسالة يقول له فيها:

- «لقد عفوتم عن الجانى، وأطلقتم سراحه . . . والذى فعل ذلك هو صاحب الحق، وكرام الناس لا يتنكرون لصنيع طيب أقدموا عليه طواعية، وأنت تعلم يا بك أن الذى له الحق فى رفع الدعوى أساسًا هو كامل إبراهيم عبد اللطيف،

وأعتقد أن هذا العفو سوف يخمد نار الفتنة ، ويهدئ من ثائرة النفوس ، ويضع حداً لمشاعر البغضاء ، ونوازع الثأر والحقد . . ».

وسكت محمد بك على مضض ، وكذلك فعل الشيخ الشاذلى الذى قال داعياً وهو يرفع كفيه إلى السماء :

- «اللهم اجعل ثأرنا على من ظلمنا . . . وانصرنا على من عادانا . . . آمين» .

□□□



رأى توفيق بك الخشن أن الأمور بالمنطقة تسير من سيئ إلى أسوأ، وأن صوت العنف والتمرد أخذ يطغى على صوت العقل والحكمة، وهذا يحمل فى ثناياه أخطاراً جمة تهدد جميع الفئات دون استثناء، وتؤدى إلى تبديد الثروة والجهود فيما لا يفيد، وبذلك يزداد الفقير فقراً، ويخسر الغنى قدراً من الدخل المتوقع، لكن انفراط عقد الثقة بين الناس، وسيادة الحق والكراهية، قد طمس الحدود الفاصلة بين الحق والباطل، والنافع والضار، والصادق والكاذب، ولهذا أخذ يفكر فى الأمر مليًا على الرغم من أن قرية سنباط كانت تنعم بغير قليل من الأمن والرخاء، بعد أن عفى على حادثة السوق التى لعب فيها البلعوطى دوراً رئيسيًا، لكن من يدرى فقد تمتد الفتنة إلى سنباط هى الأخرى، وتوفيق

بك من الرجال الأقوياء والأذكياء ذوى الكلمة المسموعة ، والرأى الصائب ، ولم يخف عليه أن سياسة أبو العز سليم الخرقاء هى التى لعبت الدور الأساسى فيما ساد المنطقة من اضطراب ، فهو قاس أرعن سريع الغضب يعتقد أنه فوق الجميع ، وأنه أقوى الجميع ، ويأنف من التسامح أو التنازل ، واعتقد توفيق بك أن عقد اجتماع يحضره مأمور المركز ، ويوسف بك الجندى الشخصية المعروفة على مستوى الدولة ، والمقيم فى مدينة زفتى ، بالإضافة إلى عمد النواحى ، ومشايخ الطرق ، وبعض ذوى النفوذ من أمثال إبراهيم عبد اللطيف ، هؤلاء جميعًا قد يستطيعون فى اجتماعهم هذا مناقشة الأمور من شتى جوانبها ، واقتراح السياسة الحكيمة التى تحقق الأمن والاستقرار ، وتحمى مصالح الناس ودماءهم وأموالهم ، وتنمى مشاعر المودة والثقة بينهم ، وفعلاً أرسلت الدعوات إلى الجميع على أن ينعقد الاجتماع فى بيت «الجندى بك» الذى أعلن ذات يوم قيام جمهورية مستقلة ، أطلق عليه «جمهورية زفتى» ، وكانت مثار جدل طويل بين الناس . .

ورفض أبو العز سليم حضور الاجتماع؛ وذلك لأنه يأنف من تواجده مع آخرين يقلون عنه شأنًا ومقامًا، فمن يكون إبراهيم عبد اللطيف؟ ومن يكون الشيخ الشاذلى؟ ومن يكون هذا العمدة الصغير أو ذاك أولئك الذين يحكمون بضعة مئات من الناس، ولا يملكون إلا قليلاً من الأفدنة.

ذهب توفيق بك إليه دون سابق موعد، فهش أبو العز لمقدمه وأصدر أوامره بأن تنحر الذبائح، وتعد الموائد الفاخرة، فشكره توفيق بك على كرمه وقال:

- «ما جئت مدعواً لمأدبة».

- «لكنك ضيف عزيز علينا، وهذه فرصة نادرة».

- «تريد أن تعبر لى عن كرمك وتقديرك».

- «بكل تأكيد يا توفيق بك».

- «إذا أردت أن تكرم وفادتى فلتلب طلبى».

أدرك أبو العز ما يهدف إليه توفيق فقال:

- «طلبك مجاب، وأملى أن يقتصر الاجتماع على العمد والمأمور ويوسف بك الجندى».

قال توفيق بك فى تودد:

- «يجب أن نستمع إلى وجهة النظر الأخرى».

- «لكنهم أعداؤنا».

- «ليس هذا صحيحًا».

- «فبم تفسر هجوم تلك الكلاب الجائعة على محاصيل أرضى؟».

- «ذلك لأنهم سيموتون إذا بقوا جوعى..».

ثم نظر إلى أبو العز بتمعن وقال:

- «وهناك من بدأوا بالعدوان على هؤلاء المساكين وأتلفوا مزروعاتهم».

- «هذا اتهام صريح لى».

- «ما جئت لأتهم، أو أحقق يا أبو العز بك، لكن أقول

إن أمثالنا يتحملون الخسائر ، أما هؤلاء المساكين الفقراء فإن أبسط كارثة تودى بهم إلى الحضيض .

واستطاع توفيق بك إقناع أبو العز سليم، وانعقد الاجتماع فى جو تسوده روح التفاهم والحكمة ، ولم يستطع أبو العز أن يجاهر بعنجهيته وتمرده أمام هذه النخبة من الرجال وإلا أدان نفسه ، وخسر المعركة ، لكنه لم يستطع السكوت أمام المقررات التى أجمع عليها الحاضرون ، ومن هذه المقررات الاتفاق على إيجار سنوى محدد للفدان يسجل فى عقد رسمى ، ولا يترك تحديد الإيجار مثلما يحدث على بياض ثم يضعه المالك حسب هواه ، وأن يؤخذ هذا الإيجار من محصول القطن ، وأن يسلم محصول الذرة والقمح للفلاح المستأجر لأن هذا المحصول عماد حياته على أن يحسب الإيجار من محصول القطن كما سبق ، والمتبقى يسلم للفلاح بالعدل بعد خصم القروض أو ثمن الأسمدة وغيرها ، ومن المقررات أيضًا تعويض كل من أضير ظلمًا فى الفترة السابقة ، على أن يتكاتف الجميع فى تنفيذ ذلك ، حتى تصفو النفوس ، ويبدأ الناس عهدًا جديدًا من التعاون

والتفاهم المشترك، ولم يستطع أبو العز سليم أن يكظم غيظه إزاء هذه المقررات، وقد أحنقه أن الجميع وافقوا عليها، حقنًا للدماء، وتأمينًا للمستقبل . . .

اندفع أبو العز سليم قائلاً:

- «إن لنا حق التصرف فى أملاكنا».

قال توفيق بك:

- «لن يحرمك أحد من هذا الحق».

- «كيف يا توفيق بك؟ إن تحديد الإيجار يجعل من ملكيتنا حبرًا على ورق . . وجميع ملاك الأراضى فى مصر يتصرفون فى أملاكهم كيف شاءوا . . ذلك هو الوضع القانونى، الأسرة المالكة والباشاوات والبكوات يتحكمون فى أرضهم . . ليس هذا هو القانون . . . إنكم ترضخون لضغوط البلعوطى وأمثاله . . يا عجبًا!! أنستسلم لإرادة الفلاحين وهم خدمنا وعبيدنا؟؟.

استأذن إبراهيم عبد اللطيف فى الحديث وقال:

- «هل من القانون أن تكتب عقد إيجار دون أن تحدد القيمة».

- «أنا حر يا بلعوطى . . إنها أرضى» .

- «وهل من القانون أن يرغم الفلاح على بيع أرضه وإلا دُمرت محاصيله ، واعتُدى عليه» .

- «هذا اتهام لا أقبله» .

- «وهل من العدل أن . . . » .

قاطعه أبو العز سليم قائلاً :

- «من أنت حتى تحاورنى ندًا لند» .

- «أنا عبد من عبيد الله مثلك» .

- «لست مثلى» .

صاح الشيخ عبد القادر الشاذلى قائلاً :

- «كلكم لآدم وآدم من تراب» .

وساد شىء من اللغط والضجة ، عندئذ رفع يوسف بك الجندى يده داعيًا إلى الهدوء حتى تحسم القضية بأسلوب أفضل ، وقال :

- «إننا هنا فى اجتماع أخوى.. مجلس عرفى.. تطوعنا فيه بمحض إرادتنا لكى نبحث عن الطرق الكفيلة بإقرار السلام، ووقف موجات العداء والعنف.. لاتتكلموا عن القانون الآن، ذلك لأن ما نتفق عليه الآن هو القاعدة التى سنسير عليها... إننا نتحاور لكى نتفق ونقرر بمحض إرادتنا مسترشدين بتوجيهات ديننا الشريف، وسنته المطهرة، وديننا دين الرحمة والإخاء والمحبة والتعاون... وكل المقررات التى اتخذناها إنما تنبع من ضمائرنا، وتخدم الصالح العام لجميع الفئات والطبقات...».

وأردف مأمور المركز قائلاً:

- «إننى باسم الإدارة، أؤمن على رأى الأغلبية، وأعلن تأييدى للمقررات، وأتعهد بحمايتها ما دمتهم قد وافقتم عليها...».

رد أبو سليم فى غضب:

- «سوف أرفع الأمر لمدير المديرية فى طنطا... بل إلى وزير الداخلية، إننى لن أستسلم لهؤلاء الفلاحين الذين يريدون سلب أموالى...».

وهب واقفًا كى يغادر الاجتماع، فأمسك توفيق بيده وجذبها إلى أسفل كى يجلس، وقال:

- «إن ما قررناه لصالحك أنت قبل أن يكون لصالح الفلاحين».

- «إننى أعرف الصالح؛ لأنه يخصنى».

- «بل يخصنا جميعًا».

فى ختام الاجتماع لم يجد أبو العز سليم مناصًا من أن يوقع معهم على المحضر.

□□□



انزعج إبراهيم أيما انزعاج، واحمرت عيناه غضبًا، وأخذ يضرب الأرض بعصاه فى عصبية، ويصرخ فى زوجه مسعدة، قائلاً لها ما معناه أن المرأة لا تربى ثورًا ويستطيع أن يحرث الأرض، أى أنها فشلت فى تربية ابنها كامل الذى يقضى سهرته كل ليلة فى بيت المعلمة «ريحانة» تاجرة المخدرات يحشش ويمرح ويطلق الضحكات المجلجلة، ثم لا يذهب إلى الحقل فى اليوم التالى إلا متأخرًا، وريحانة سيئة السمعة هى وأمها، والغريب أن زوج ريحانة قد ترك لها الحبل على الغارب، ولا يهتم بالعبث الذى تمارسه زوجته دون حياء، كان إبراهيم يريد أن يكون ابنه نسخة منه، وأن يتسم برجولة مبكرة تجعل منه أمينًا على مستقبل الأسرة، إذا ما ودع إبراهيم الحياة بعد وقت طويل أو قصير،

وتدخلت البابلية وحاولت أن تقنع إبراهيم بأن الشباب فى هذه الأيام يريدون أن يجربوا كل شىء، وهى واثقة من أن كامل لن يرتكب الحماقات التى يتصورها إبراهيم، لكن إبراهيم لم يقتنع بما تقول، وأكد لها أن من يذهب إلى دار ريحانة، إنما يضع نفسه موضع الشبهات، ويثير حوله القيل والقال، ويخرجه الناس من دائرة الاحترام، ولا يثقون فى أقواله أو أفعاله، وكامل هو الابن الأكبر وهو الوريث المحتمل لمجد أبيه، الذى يجله الناس ويتحدثون عنه بكل وقار وتقدير، ويوم أن ينحرف كامل فسوف يشكل ذلك خيبة أمل كبرى له وللعائلة، ولن يكون جديراً بحمل المسئولية الضخمة التى حملتها الأقدار لإبراهيم وبنية وأفراد أسراة عبد اللطيف.

حينما عاد كامل إلى البيت قبل منتصف الليل بساعة تقريبًا وجد أباه واقفًا بكامل ثيابه وسط الصالة وعصاه العوجاء فى يمينه، شاهد كامل أباه على هذه الصورة فتوقف، واضطربت نظراته وحركاته برغم الضوء الخافت الذى يبعثه المصباح.. واستشعر كامل الخطر عندما سمع أباه يقول:

- «أين كنت يا ابن مسعدة؟» .

حينما يكنيه بأمه يفهم كامل أنه فى أشد حالات الغضب .

- «انطق يا «بجم» ، من أين جئت؟» .

قال كامل مستسلمًا وهو مطأطئ الرأس :

- «أنت تعرف» .

- «إذن فإن كل ما سمعته كان حقًا» .

- «أنا لا أتصرف فى الخفاء» .

- «ولماذا لا تخبرنى يا ولد» .

- «احترامًا لك» .

- «الغريب أنك لا تكذب» .

- «لقد علمتنا الصدق» .

- «ما معنى ذلك؟ أهو التحدى؟» .

- «ما عاش من يتحداك يا أبى» .

قال إبراهيم فى حسرة :

- «لقد نصرت علىّ امرأة فاسدة تبيع المخدرات وتبيع شرفها» .

- «حاشا لله أن تقارن نفسك بها . . كل ما فى الأمر قدر قليل من الترفية كما يفعل الشباب» .

- «ألم أكن شابًا مثلك؟» .

- «بالطبع لا . . . كنت أفضل الجميع طوال حياتك» .

- «ولماذا لا تحاول أن تكون مثلى؟» .

- إننى أحاول دائمًا» .

- «لكن الذى يحدث منك هذه الأيام يصيبنى بالحزن والأسى» .

وهنا تدخلت البابلية ، بينما اعتصمت أمه مسعدة بالصمت .

- «دعه يذهب لينام ، والصباح رباح» .

- «أتظنين أن النوم سيأتينى هذه الليلة يا مباركة؟» .

- «ولم لا؟ ما حدث أمر بسيط، ويمكن تداركه . . ».

وعـاد الصمت من جديد بعد أن انصرف كل إلى حـال سبيله، فالوقت متأخر، والبيت لابد أن يستيقظ فى الفجر كى يؤدى كل واحد عمله مثل باقى الأيام، وحينما تمدد إبراهيم على فراشه، واضعًا يديه تحت رأسه، وإلى جواره البابلية قالت بصوت رقيق:

- «الولد سر أبيه يا إبراهيم».

- «أشم فى كلماتك شبهة اتهام . . ».

- «الناس يتحدثون عن أيامك الخوالى».

- «لم أفسق أو أتعاطى المخدرات».

- «أعرف أنك طاهر الذيل، لكن . . . ».

- «تكلمى . . . ».

- «كنت معشوق النساء».

- «هذه كلها مبالغات . . . ».

قالت وهى تضحك فى دلال:

- «لكنى أعرفك يا إبراهيم».

ابتسم.

وانبسطت أسارير وجهه، وهى تدلك يديه ورجليه..
قال بصوت تنديه الذكريات:

- «رآنى أبى عثمان جالسًا إلى جوار بنت الجيران فى حقل الفول الأخضر.. كنا نضحك.. وفجأة انهال علىّ بغصن من شجرة الصفصاف.. انتفضت.. جرت الفتاة، وبقيت جالسًا أتلقى ضربات كالسياط.. ثم قمت.. ووقفت صامتًا دون أن أنطق ببنت شفة...».

- «أما زلت تذكر؟».

- «لا يمكن أن أنسى... ذلك لأنها كانت حادثة مصيرية... فعندما عاد أبى عثمان إلى البيت، قال لأمى خضرة السروجى.. ابنك بلغ سن الشباب يا خضرة... يمينًا بالطلاق لأزوجنه هذا الشهر...».

- «وهل تزوجت الفتاة؟؟».

- «رفض... فقد كانت فى نظره لا تصلح برغم جمالها لأنها جالستنى دون حياء أو خجل... ثم ذهب إلى بيت خليفة... وزوجنى من مسعدة...».

- «أيهما كانت الأجمل؟».

- «زوجتى مسعدة... كانت كالوردة المفتحة، لكن إنجاب العيال، ومشاق الحياة، صرفتها عن الاهتمام بنفسها...».

وانتفض جالسًا فى فراشه، ثم قال بحزم:

- «ولقد قررت أن أزوّج كامل فى أقرب فرصة، الزواج وقاية من الانحراف، ما دمت قادرًا على الإنفاق..».

انطلقت زغرودة من فم البابلية، لكن إبراهيم سرعان ما كتمها.

- «ما هذا الذى تفعلينه يا مجنونة... نحن فى منتصف الليل».

- «تصورت أنه سيكون لك حفيد ففرحت... ذلك لأنى سأربيه».

سافر إبراهيم فى اليوم التالى إلى مدينة طنطا ليزور ولده عبد الفتاح وليصلى فى مسجد السيد البدوى، وليشترى الكسوة السنوية لأهل بيته، وليعود ومعه الحلوى والحمص وبعض متطلبات الأسرة، وهو يفعل ذلك فى مختلف المواسم، وكان عازمًا أن يقضى أيامًا ثلاثة يبيت خلالها فى الحجرة التى يستأجرها ابنه عبد الفتاح. وقبل أن يركب حماره متجهًا إلى طنطا استدعى كامل وأوصاه بما يجب عليه عمده فى الغيط والبيت، وفوضه فى التصرف باسمه فى كل ما يواجهه من أمور، مؤكدًا أنه -فى غيابه- هو رجل البيت، وأنه يثق فيه ثقة تامة، ويتمنى أن يكون عند حسن الظن به . . .

بينما كان كامل يتناول طعام العشاء وسط العائلة، جاءه رسول عاجل من قبل ريحانة . . وحينما أدرك كامل ذلك تولته الحيرة والقلق؛ لأن ذهابه إليها يغضب أباه، وهو حريص على إرضائه وإعادة ثقته الكاملة به. وحينما حاول الاعتذار أفهمه الرسول أن هناك أمورًا مهمة جدًا تقتضى حضوره، ولم يكن كامل يعرف شيئًا عن تلك الأمور . . . ووجد فى داخله إحساسًا عميقًا يدفعه إلى تلبية دعوتها،

وليس فى ذلك بأس ، فإذا كان سبب الدعوة أمرًا تافهًا فسوف يعود أدراجه .

استقبلته ريحانة لدى الباب ، فقد ظلت واقفة فى انتظاره وهى فى كامل زينتها ، وقد ارتدت حليها الذهبية جميعها ، كان فى عينها نداء وإغراء يصعب مقاومته ، وهمست بصوت متكسر :

– «خاصمتنا يا سى كامل؟ وكيف نصبر على فراقك . . يا قاسى؟» .

وأمسكت بيده كالمتشبثة ، وهى تقول :

– «بالغرفة الداخلية ثلاثة رجال جاءوا لمقابلتك . . » .

– «غرباء؟ من أين؟» .

– «من الصعيد» .

– «هل هم تجار للجمال؟» .

– «لا أعرف . . . لكنهم زبائن قدامى يأتون من آن لآخر . . .» .

- «وماذا يفعلون؟».

قالت ضاحكة:

- «ماذا تتصور؟ يشترون المخدرات... أرزاق... يا سى كامل».

دخل كامل، ورحب بالرجال الثلاثة بحرارة ودعاهم للانتقال إلى بيته، لكنهم شكروه، وأفهموه أن هنا أنسب مكان بالنسبة لهم، كانوا يرتدون الجلابيب الصوفية التقليدية، والعمائم المميزة، سمر الوجوه، نظراتهم كنظرات الصقور.

أسرعت ريحانه بإحضار الطعام، كانوا يأكلون بشراهة، وحاول كامل أن يجاملهم فأكل معهم بضع لقيمات، ثم دارت النرجيلة المعبأة بالمعسل والحشيشة، ولم يجد كامل مناصًا من أن يشاركهم التدخين، فهذا هو معيار الرجولة والكرم... ثم قال كبيرهم:

- «نحن لا نغدر أو نخون إلا بالحق».

- «نعرف أنكم أشجع الرجال».

- «وقد عرفنا كل شىء عن أبيك . . . لم نجد رجلاً فى حياتنا يحبه الناس مثلما يحبون أباك . . . » .

- «نحن نعتز بما تقولون . . . ونشرف به . . . » .

ودارت النرجيلة دورة أخرى يتخللها شرب الشاى ، ثم قال الكبير :

- «أتعرف رجلاً اسمه محمد بن بحراوية» .

- «ومن منا لا يعرفه؟» .

- «من هو؟» .

- «كلب عقور . . . يعمل شيخ خفراء عند أحد الأثرياء . . . ميت الضمير . . . يبيع أى شىء بالمال حتى شرفه . . . » .

- «ولماذا يكره أباك؟» .

- «لأن أبى يستطيع أن يقول لا» .

- «ماذا تعنى؟؟» .

- «عاش أبى مدافعًا عن الفقراء والمظلومين. . . يضحى بحياته وماله من أجلهم. . . وأبو العز سليم يريد الناس عبيدًا، ومن يعترض مشيئته يبادر بمحوه من الوجود. . .».

نظر الثلاثة إلى بعضهم البعض، ثم أخرج كبيرهم رزمة من الأوراق المالية، وأخذ يعدها ورقة ورقة، ثم وضعها أمامه، وقال:

- «هذا ثمن رأس أبيك. . . مائة جنيه عدًا ونقدًا. . . ووعدنا بمثلها بعد نجاح العملية. . .».

هز كامل رأسه، ثم نحى النرجيلة جانبًا وقال:

- «قد لا يكون لدينا نصف هذا المبلغ ولا ربعه، لكننا نملك الكثير من الأمانة والتضحية والحب. . . ولن أستطيع أن أوفيكم حقكم من التكريم والتقدير».

- «نحن لا نبيع الرجال، ولكننا نشتريهم بكل كنوز الدنيا. . .».

- «إذن فلتقبلوا ضيافتنا حتى يعود أبى بعد الغد. .».

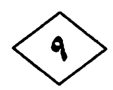
- «يصعب علينا ذلك . . . » .

- «معنى ذلك ، أنه آتى إليكم مع أبى فى أى بلد تحلون به» .

قالت ريحانة وهى تلتقط أكواب الشاى الفارغة :

- «بل ستبقون فى ضيافتى حتى يعود سيدنا . . . ولن يراكم أحد . . . هذا أمر من ريحانة التى لا يرد لها طلب . . . » .

❑❑❑



كان إبراهيم أثناء زيارته لطنطا يخطط لزواج ولده كامل، ويفكر فيمن تكون العروس المناسبة له، ولم يكن يعلم أن أخبارًا خطيرة تنتظر عودته، وإبراهيم يعتقد أن الزواج المبكر حماية للأبناء من الانحراف على الرغم من بعض مثالية المحدودة، وكانت أولى المرشحات لهذا الزواج هى «رقية» ابنة الشيخ عبد القادر الشاذلى وعندما دخل إبراهيم بيته حاملاً الأشياء التى اشتراها، ومعه أحد الحمالين لاحظ قدرًا ملحوظًا من التوتر سائدًا، كان ذكيًا يستطيع قراءة الوجوه، ومعانى النظرات، تمتم:

- «نحن فى أيام مملوءة بالمفاجآت، ولا يُستغرب فيها شىء».

ولما لم يعلق أحد استطرد قائلاً:

- «لا تخفوا عنى شيئًا، فأنا قادر على امتصاص الصدمات».

قال كامل وقد شحب وجهه :

- «أبو العز سليم» .

- «ماذا يريد؟ هل نقض العهد؟» .

- «استأجر رجالاً لقتلك» .

- «أليس فى الأمر مبالغة؟» .

- «إنهم هنا فى البلد» .

- «قبضتم عليهم إذن» .

- «لقد أتوا بمحض إرادتهم . . أعجبوا بسيرتك العطرة وتاريخك العظيم . . .» .

- «لعلهم يريدون أن يحصلوا على بعض المال باختراع مثل تلك المؤامرة الغريبة . . .» .

- «ستلتقى بهم يا أبى وتعرف كل شىء» .

جلس إبراهيم على حصير مفروش فى الصالة ، وقال :

- «العنف لا يولد إلا العنف» .

- «وأبو العز رجل أحمق ضيق الأفق» .

- «أخاف أن ينفد الصبر ، يقال أن للصبر حدوداً» .

- «إن شئت أحرقنا بيته بمن فيه ، بل أحرقنا القرية كلها» .

- «أبوك لا يفعل ذلك يا كامل» .

- «لقد نجونا حتى الآن من مؤامراته ، فما الذى يضمن لنا ألا تصيبنا سهامه المسمومة فى قابل الأيام . . » .

- «إن الله معنا يا كامل» .

- «أعرف ، لكن . . . » .

قاطعه أبوه قائلاً :

- «نحن الأقوى» .

- «لكن وسائله قذرة» .

- «إنه يستجيب لتحريض إبليس ، ونحن ننقاد لأوامر الله» .

- «ماذا سنفعل إذن؟» .

- «سترى».

- «قد ننجو مرة يا أبى، لكننا لن نفلت من حبائلة كل مرة...».

صمت إبراهيم برهة ثم قال:

- «من يأتينى بمحمد بن بحراوية؟».

- «أنا كفيل بأن آتيك برأسه».

- «بل أريده حيًا».

- «سنجره إليك مقيدًا بالحبال فى أيام قليلة».

- «دون خسائر».

- «بالتأكيد... إنى أعرف ما يجب عمله...».

وكانت خطة كامل غاية فى البساطة، إن ابن بحراوية يأتى من آن لآخر على المعلمة «ريحانة» ليشترى الحشيش لسيده، لكن المشكلة أن أحدًا لا يعرف مواعيده بالتحديد؛ ولذا كان من الضرورى أن يستعين كامل بالمعلمة، وذلك بأن تخبره خفية بمجىء ابن بحراوية، الذى لا يأتى إلا ليلاً، ومعه اثنان أو ثلاثة من الخفراء.

قال إبراهيم عندما عرضت عليه الخطة :

- «قد يعتبرونها جريمة خطف ، لكنى سوف أتصرف بحكمة . . . نفذوا ما اتفقتم عليه ، والله معنا . . . » .

كانت ريحانة سعيدة لأن البلعوطى يحتاج إلى خدماتها ، وفى نفس الوقت كانت مطمئنة لأن أحدًا لن يكشف دورها ، وتعمدت حين أتى ابن بحراوية أن تتلكأ فى تسليمه البضاعة حتى ينتهى كامل ورفاقه من إحكام خطتهم ، وفعلاً خرج ابن بحراوية قبيل الفجر راكبًا فرسه ، ووراءه اثنان من الخفراء يجريان ويلهثان ، ومروا أمام الجامع الكبير ، ثم شق طريق وسط القرية تحت جنح الليل ، وفى نهاية الطريق انحرف يسارًا متجهًا إلى المزارع ليمضى فى السكك التى تتخللها . . . أخذ ابن بحراوية يغنى بصوته الأجش عبر الحقول الشاسعة ، وكان مغرمًا بموّال الأدهم الشرقاوى .

منين أجيب الناس لمعنات الكلام يتلوه .

وفجأة انقضّ عليه الملثمون الذين انشق عنهم الظلام ، فصرخ طالبًا النجدة ، بينما فر الخفيران مذعورين ، وجد ابن

بحراوية نفسه وحده فى مواجهة الكارثة التى تكاد تودى بحياته، هتف مسترحمًا:

- «أنا فى عرضكم يا رجال... لا تقتلونى».

لم يرد عليه أحد، بل أخذوا يقيدون يديه ورجليه بالحبال. عاد يتوسل:

- «أنا صاحب عيال.. فى رقبتى كوم لحم... السماح يا أهل السماح...».

كان الظلام يحيط به من كل جانب، والوجوه الملثمة تحاصره حتى تكاد تخنق أنفاسه، والكلاب تنبح من بعيد، والذئاب تعوى، وفرسه مشغول عنه بأكل بعض الحشائش والنباتات، ثم أخذ يبكى ويسترحم ويقول:

- «منه لله أبو العز سليم... هو سبب شقائى وبلائى... أعاهدكم أن أتركه إلى الأبد... وأمشى من بلاد الله لخلق الله أتسول لقمة العيش أنا وعيالى... هذا أكرم... لماذا لا تردون؟ تكلموا.. أكاد أموت من الرعب...».

فى اليوم التالى أركبوا ابن بحراوية على الفرس، كان وجهه ناحية ذيل الفرس، وظهره نحو رأسها، والشارع مزدحم بالخلق، والأطفال يعفرونه بالتراب، ويرمونه بروث البهائم، وهو مطأطئ الرأس، دامع العينين، لائذًا بالصمت، وكأنه فى كابوس رهيب لا يدرى متى يفيق منه.

وعلم أبو العز سليم من الخفيرين باختطاف محمد بن بحراوية فبادر بالذهاب إلى المركز فى صبيحة اليوم التالى مبلغًا عن الحادث، لكن ابن بحراوية كان قد سيق إلى دوار توفيق بل الخشن فى سنباط، الذى أجرى معه التحقيق مفصلاً بحضور الرجال الثلاثة القادمين من الصعيد، وبحضور عمدة شرشابة أيضًا محمد بك جمال، وقد رأى إبراهيم عبد اللطيف أن يفعل ذلك لضمان حياد التحقيق، فلا يتهم عمدة شرشابة بالتحيز له، واعترف ابن بحراوية تفصيليًا بتدبيره للمؤامرة بتوجيه من أبو العز سليم، وقد أثارت القضية دهشة مأمور المركز حينما انتقل التحقيق إلى زفتى، وعجبوا كيف يفعل أبو العز سليم ذلك، وهو الذى وافق ووقع على القرارات التى اتفق عليها، لكن أبو العز ثار

ثورة عارمة وأنكر كل التهم الموجهة إليه، بل زعم أن ابن بحراوية ضالع فى مؤامرة تحاك ضده لتشويه سمعته، فهو الرجل الذى يحرص على الحفاظ على الأمن، وحماية أرواح الناس وممتلكاتهم، ومن ناحية أخرى فقد أجرى أبو العز اتصالاً سريًا مع ابن بحراوية كى يغير أقواله، ويعترف بأنه هو الذى دبر المؤامرة دون علم سيده، وإذا لم يفعل ابن بحراوية ذلك، فسيلحق الانتقام بزوجه وأولاده، وخير له أن يعترف على نفسه لحماية أسرته، وليضمن المعونات التى يتعهد أبو العز سليم بتقديمها له، وفكر ابن بحراوية ماذا يفعل؟ إن الأمر خطير، ويصعب أن يفلت منه، ولهذا طلب المحقق وغير أقواله هذه المرة بطريقة تفتح أمامه باب النجاة. . .

- «أنا محمد بن بحراوية أنكر كل الاعترافات السابقة لأنها جاءت تحت الضغط والإكراه. . . وأنا لم أذهب إلى الصعيد، وليس لى سابق معرفة بالرجال الثلاثة الذين زعموا أننى دفعت له لهم مائة جنيه، ومن يملك مائة جنيه فى هذه الأيام؟ ولو كان الأمر صحيحًا لأخذتها لنفسى،

ولقمت بمهمة قتل البلعوطى . . . أنا برىء . . . برىء . . .
والله العظيم برىء . . . اسألوه . . . اسألوا أبو العز . . . » .

ولم ينسا بن بحراوية أن يحدث فى جسده بعض الإصابات التى عزاها للرجال الملثمين الذين أشبعوه ضربًا ، والذين لا يعرف أسمائهم . . .

لكن الانطباع السائد كان أن أبو العز هو الذى دبر المؤامرة ، وأن مخلب الشيطان محمد بن بحراوية هو الذى سعى لتنفيذها ، وكما حظى أبو العز بالسخط الشنيع ، فقد حظى البلعوطى بالتقدير والاحترام ، وبمزيد من الحب ، وأيقن الجميع أن البلعوطى رجل يصعب اصطياده ، ذلك لأن العناية الإلهية تحرسه وترعاه ، وتصرف عنه كيد الشيطان .

وخرج ابن بحراوية بكفالة دفعها له أبو العز سليم ، الذى لم يكف عن بذل الجهود المكثفة ، ودفع الرشاوى ، وعمل الوساطات لإفشال القضية .

قال أبو العز :

- «تعرف أنك موقوف عن العمل يا ابن بحراوية» .

- «نعم يا سيدى البك».

- «ظننتك رجلاً . . .».

- «كانت الضغوط شديدة لا أحتملها . . . كادوا يقتلوننى».

- «نصرت البلعوطى علىّ».

- «ما عاش من ينتصر عليك».

- «وماذا بقى أن تفعل بعد أن فشلت فى كل شىء».

- «أقتله . . . وأقتله . . . وأقتله . . .».

- «كلام فارغ . . . دون فعل . . .».

-«قد نفشل مرة . . .».

- «قل مرتين أو ثلاثة . . .».

- «الفرصة مواتية . . .».

- «وهل أثق فيك بعد ذلك؟».

ارتمى ابن بحراوية على قدميه يقبلهما، وهو يقول:

- «أنت سيدنا ومولانا. . . أنت الذى لا يقهره أحد. . .».

- «كان ذلك قبل أن يظهر لنا البلعوطى».

- «أتريد أن ندس له السم؟».

- «كيف يا فصيح؟».

- «فى مجلس الشيخ الشاذلى، أحد جواسيسنا هناك».

- «من؟؟».

- «يونس عبده. . . أحد الدراويش. . . إن الشيطان يتلبسه. . . الناس يسمونه إبليس. . . والشاذلى طرده من حلقة الذكر مرارًا. . .».

- «اشعل النرجلية يا غبى. . . إبراهيم يحبه السفهاء والوجهاء. . . لم أر رجلاً سحر الناس كما فعل البلعوطى».

أخذ يجذب أنفاس النرجلية متفكرًا، وابن بحراوية صامت جاث عند قدميه، ينظر إليه فى ابتهال.

تمتم بعد أن نفخ الدخان الكثيف من فمه ومنخريه :

- «إنى أثق بك أيها الحيوان» .

تهلل الوجه الأسود بالفرح ، ولمعت عيناه فى نشوة .

- «ولن تخوننى ما حييت . . . » .

- «أقسم على ذلك يا سيدنا» .

- «لا تقسم . . . أنت تخاف منى ، وأنا قَدَرُكَ ، ولو ذهبت إلى آخر الدنيا أتيت بك ذليلاً حقيراً . . . » .

- «لن تحتاج إلى شيء من هذا يا سيدنا . . . لقد وهبت حياتى لك . . . فافعل بى ما شئت . . . علاقتى بسيدنا مثل زواج النصارى فلا فكاك . . . » .

لم يعلق أبو العز على كلامه ، وبما يكون قد صم أذنيه عن سماعه ، وأخيراً قال :

- «أوعز إلىّ توفيق بك الخشن بفكرة . . . إننى الآن قادر على أن أروّض البلعوطى» .

□□□



لم يكن لأبناء أبو العز سليم ذكوراً وإناثًا قيمة فى حياته، ولم يعول عليهم فى أى موقف أو أزمة، ولقد يئس من إصلاحهم أو النهوض بمستواهم، لقد رفض أن يبعث بهم إلى المدارس ظنًا منه أن المدارس لا تخرج إلا موظفين يتقاضون مبلغًا تافهًا من المال، وهم ليسوا فى حاجة إلى هذا المال، ولم يكن يهتم بشئونهم أو يشرف على تربيتهم، موقنًا أن أبناء أبو العز سليم لابد أن يكونوا على شاكلته سواء أرادوا ذلك أو لم يريدوا، والواقع أنهم كانوا يأكلون ويشربون كما تأكل الأنعام، وعندما كبروا أخذوا ينظرون إلى الجانب الفاسد من الأمور، يغازلون الخدم، ويطاردون فتيات القرية، ويقعون فى شباك الساقطات، ويدخنون السجائر والحشيش، ويسافرون إلى مدينة ليلهوا ويعبثوا،

وبعضهم انحرف انحرافًا مشينًا، واستمر أ الشذوذ، أما أمهم فلم يكن لها وزن أو تأثير، لقد ألغى أبو العز شخصيتها منذ البداية وأصبحت مجرد جارية تؤمر فتطيع، وطوال الفترة السابقة عاشت معتلة الصحة، تعانى من أزمات ربوية متكررة، وتذهب إلى طبيب المركز من آن لآخر ليصف لها الدواء، ولقد كان معروفًا أن الابن الأكبر لأبو العز سليم يأتى إلى شرشابة، ويسهر لدى «ريحانة» حتى الفجر، ومن الغريب أنه لم يكن يخاف أن يصطاده أعداء أبيه، فالجميع يعرفون أنه لا صلة له بما يجرى من أحداث، ولا يحاول أن يتدخل فى شىء منها، وربما أظهر للناس نفوره من أبيه وتصرفاته الجائرة، وكثيرًا ما كان يؤكد أنه لو كان الأمر بيده لقضى على الاستغلال والظلم الذى يمارسه أبوه، وتخلص من الأعوان الفاسدين الذين يبثون الفتن، ويبطشون بالضحايا، ومن المعروف أن أبو العز سليم كان شحيحًا على أبنائه وبناته، لكن زوجته كانت فى النقيض من ذلك، غير أن عطاء الزوجة لم يكن كافيًا، لهذا لجأ

الأولاد إلى سرقة كميات من المحاصيل وبيعها فى الخفاء حتى يوفروا لأنفسهم ما يحتاجونه من مال، وقد يسطون على الأغنام أو البهائم، وذات مرة سرقوا جزءًا من مجوهرات أمهم، وحاولت زوجه أن تقنعه بأن يحدد لهم راتبًا شهريًا لكنه رفض قائلا: «إنهم يأكلون ويشربون، فماذا يريدون؟ ثم إن هذه الثروة كلها لهم، وإن كنت أعلم أنهم لا يستحقونها، بل أكاد أجزم بأنهم يتمنون موتى اليوم قبل الغد كى يرثونى... إنهم ذرية فاسدة ليس فيهم من يصلح لخلافتى... لكنى أقول إذا لم أستطع أن أربيهم، فإن الأيام ستربيهم، وكما يقول المثل: الذى لا يربيه أمه وأبوه تربية الأيام والليالى...»، أما الكارثة الكبرى فقد كانت من نصيب البنات... لقد كبرن وبلغن السن المناسبة للزواج، وكلما تقدم خطيب لإحداهن رماه بأقذع الشتائم، وطرده شر طردة، وكان يقول لزوجته إذا سألته عن سر رفضه:

- إننى أأنف أن تنام ابنتى فى حضن رجل «أى رجل».

- «لكن النساء خلقن للزواج يا أبو العز...».

- «إن المتقدمين ليسوا أزواجًا، إنهم لصوص يطمعون فى ثروتى... ثم إنى لا أتصور -كما قلت لك- أن يكن بناتى فى فراش رجل غريب».

- «سنة الله يا أبو العز».

- «أنا غير الرجال الذين فى الدنيا جميعًا...».

- «أنت سيد الجميع... لكن...».

وكان يقاطعها قائلاً:

- «كفى لن أغير رأيى».

وبعد فترة صمت تعود الزوجة المريضة لتقول:

- «اختر لهن من شئت من الأزواج».

صاح فى غضب:

- «هل جننت يا امرأة؟ أأقول لهم تعالوا وتزوجوا بناتى؟».

وكانت المناقشات تنتهى دائمًا إلى غير نتيجة، مما دفع الزوجة إلى البحث عن كتّاب الرقى والتعاويذ ومحضرى

الجان، وكانت تدفع لهم مبالغ كبيرة من المال دون أن يعلم الزوج آملة أن تصل إلى حل تلك المشكلة العويصة التى أزمنت واستعصت، وأخذ الناس يتناقلون شائعات تزعم أن بنات أبو العز سليم يعقدون صلات آثمة مع المستخدمين والخفراء، لكن أحدًا لم يكن بقادر على أن ينقل هذه الشائعات إلى مسامع الأب الذى يعيش فى عمله الخاص، واثقًا أن بناته فى طهر البتول، لا لسبب إلا لأنهن بنات أبو العز.

ومن الطريف أن ابنه الكبير فريد قال للمعلمة ريحانة ذات ليلة:

- «أريد أن أتزوجك».

ضحكت من أعماقها وقالت:

- «كيف وأنا متزوجة؟».

- «سأدفع لك ما تشاءين من المال كى تطلبى الطلاق».

- «وحتى لو حدث ذلك، فهل يرضى أبوك؟».

- «سيكون الأمر سرآ، وأبى سيموت يومًا ما».

- «كيف أرتبط برجل يخاف أن يعلن الحقيقة؟».

- «المهم أنا وأنت».

ضحكت فى سخرية وقالت:

- «هل تحبنى حقًا؟».

- «أتشكين فى ذلك؟».

- «لماذا؟».

- «لأنك أفتن من عرفت».

- «لقد لعب الحشيش برأسك... فاذهب لتنام، وفى الصباح ستجد نفسك قد نسيت كل شىء... ونسيتنى... وحذار أن تعود لمثل هذا الكلام مرة أخرى، وإلا أغلقت بابى فى وجهك».

- «أهذا كلام تقولينه لابن أبو العز سليم؟».

- «ذلك لأنك لا تملك من أمر نفسك شيئًا...».

- «بل أملك كل شىء... إنه أبى مريض بالقلب وارتفاع

ضغط الدم. . . وسيموت قريبًا. . . أنا متأكد. . . وسيكون كل شيء ملك يمينى. . . »:

تعود ريحانة لتضحك فى سخرية وتقول لفريد:

- «عشم إبليس فى الجنة. . . ».

صرخ فريد فى غضب:

- «أستطيع أن أجهز عليه».

- «تقتل أباك؟».

- «إذا أردت».

- «ألم أقل لك إنك أكثرت من تدخين الحشيش؟».

والواقع أن أولاده جميعًا كانوا ينتظرون بفارغ الصبر اليوم الذى يموت فيه، عندئذ ستحل كل مشاكلهم، سيتزوجون ويمرحون وينفقون كما يحلو لهم، لكن «عمر الشقى بقى» كما يقولون. . .

وفى إحدى الليالى قالت ريحانة لفريد أبو العز:

- «أتطمع أن تتزوجنى حقًا؟».

- «ما دام الزواج هو السبيل الوحيد إليك».

- «على الرغم من أنه فكرة جنونية ستكلفنى الكثير إلا أنى أعدك بذلك بشرط . . .».

قفز من جلسته واقفًا، ونحى النرجيلة جانبًا وقال فى لهفة:

- «ما هو شرطك؟».

قالت فى إغراء:

- «تقتله».

- «أبى، أنا . . .».

قاطعته قائلة:

- «لا . . . لا . . . أنا لست بلهاء، ولا يليق بى أن أفعل ذلك، إنه على كل حال أبوك الذى كان سببًا فى وجودك . . .».

- «من تقصدين إذن؟».

قالت وهى ترمقه بنظرات شرسة:

- «محمد بن بحراوية . . ذلك الفاسد الملعون . . مخلب الشيطان» .

تمتم :

- «يا غالى والطلب رخيص» .

- «ليس الأمر بسيطًا يا سى فريد» .

- «كلنا نكرهه . . . إنه جاسوس أبى على الناس وعلينا ، وسبب المشاكل التى تحل بالأسرة وبالبلد . . وأهل كفر الديب وكفر شبرا قلوج وشرشابة يكرهونه أشد الكراهية . . إن قتله عدل . . . وليس جريمة . . . وكنت أتمنى أن يكون مهرك أسمى من ذلك .

وعادت ريحانة تقول :

- «إذا مات ابن بحراوية فستهنأ الأرواح الحائرة التى سفك دمها ، وستخمد الفتن ، وسيفكر أبوك ألف مرة قبل أن يولى غيره على عرش الظلم . . . إنك تقدم بذلك خدمة إنسانية للجميع . . . » .

قال فريد شاردًا :

- «كان يمسك بى وأنا صغير ، ويقيد رجلى حتى يضربنى أبى بالسياط على قدمى . . . وكان يفعل ذلك مع إخوتى . . بل مع أخواتى المسكينات . . . وكان يحرض أبى على إذا رآنى أكلم فتاة من فتيات القرية ، كى يعاقبها قبل أن يعاقبنى . . . هذا رجل يجب أن يموت . . . » .

واقتربت ريحانة منه ، ومسحت على رأسه وشاربه وكتفيه العريضين وقالت :

- «لو فعلتها فستدخل الجنة» .

قال فريد وعيناه محمرتان ، ورأسه يتطوح :

- «المهم أنت . . . » .

فى طريق عودته إلى قريته ، راكبًا فرسه كان يفكر فى المهمة الثقيلة التى كلفته بها ريحانة ، إنه لا يشعر بأدنى تردد ، فهو يكره ابن بحراوية من قديم ، ولكم تمنى أن يتخلص منه ، لكن الذى يشغله هو هل ستفى ريحانة بوعدها ، وتطلب الطلاق من زوجها ثم تتزوجه هو؟ إن

فريد يميل إلى تصديقها، وحتى لو غدرت فلن يرحمها، سيجعلها تلحق بابن بحراوية غير مأسوف عليها، إنه ابن أبيه . . . ابن أبو العز سليم، وليس من حق أى إنسان أن يخدعه، إنه عهد بينها وبينه، عهد موثق بالدم.

□□□



سادت القرية موجة من الفرح الغامر عندما سرى فيها نبأ خطبة رقية ابنة الشيخ عبد القادر الشاذلى لكامل بن إبراهيم عبد اللطيف، وكان كامل سعيدًا بهذا الحدث الذى لم يخطر له على بال من قبل، فقد كانت رقية جميلة وارعة، شربت الصلاح والتقوى من أبيها، ولم تكن تخرج من بيتها إلا منقبة تحت جنح الظلام، إذا كانت هناك ضرورة ملحة، ولم تكن تخاطب غير ذى محرم إلا من وراء حجاب شأنها فى ذلك شأن نسوة البيت، وكانت هى الأخرى سعيدة نظرًا لما يتمتع به كامل من سمعة طيبة، ورقة شعور، واستيفاء لأمارات الرجولة الحقة، ونجاح فى كل ما يعهد إليه من أعمال، بالإضافة إلى أن أباه هو إبراهيم عبد اللطيف، الذى يعرف القاصى والدانى مروءته وشهامته، وتعففه عن

الحرام، ومساندته لكل المظلومين، ومناصرته لقضايا الحق، على الرغم من أنه لا يملك مالا كثيراً، ولا منصبًا كبيراً.

وبدأت الاستعدادات ليوم الزفاف، وانطلقت الإبل من شرشابة إلى طنطا لتحمل أثاث العروسين، وكان الناس يتحدثون عن غرفة الضيوف ذات اللون الأخضر البرسيمى، والسجاد العجمى، والتى ليس لها مثيل فى القرية، كما تحدثوا عن باقى الأثاث؛ وعن مكية الذهب التى اشتراها الشيخ لابنته، وفيها خلخال ثقيل غالى الثمن لم يسبق لأحد أن اشترى مثله.

واشتدت الغيرة بالزوجة المعزولة مبروكة، وقالت لولدها محمد:

- «اذهب إلى أبيك واطلب منه أن يزوجك أنت الآخر، أم أن الزواج حلال لأبناء مسعدة، وحرام على ابن مبروكة؟ . . .».

وبادر محمد بالذهاب غلى أبيه كما أمرته أمه، وعندما وقف مرتبكًا أمامه قال:

- «ما الذى جاء بك فى هذه الساعة؟» .

- «أليس من حقى أن أتزوج مثل كامل؟» .

- «لكنك مازلت صغيراً» .

- «الصغير يكبر، وأنا أستطيع أن أتحمل المسئولية» .

ابتسم إبراهيم وقال دون غضب :

- «هذا يسعدنى . . . اذهب إلى أمك وقل لها : لم يأت الوقت المناسب بعد» .

- «لكنى خائف» .

- «م يا محمد» .

- «إن البنت التى أتمناها قد يخطفها غيرى» .

- «إذا كانت تحبك فستنتظر» .

- «إنها تحبنى وتنتظر» .

هز إبراهيم رأسه متعجبًا وقال :

- «بعد أن خرجت من بيتى انطلقت كالمهر الهائج» .

- «لم يحدث قط يا أبى».

- «من تكون تلك الفتاة».

قال بعد تلعثم:

- «فهيمة ابنة محمد أبو صالحة».

- «حسنًا... إنه من الأعيان».

- «أتظننى أجهل قدرك يا والدى؟».

- «أو كنت مستطيعًا أن تفعل غير ذلك؟».

وصرفه أبوه بعد أن وعده خيرًا وهو يقول:

- «إن من أسعد أمنياتى أن أراكم متزوجين وسعداء فى حياتى».

- «أطال الله عمرك يا أبى وأبقاك لنا ذخرًا».

كان يوم زفاف كامل وعروسه من أجمل الأيام فى تاريخ القرية، ومنذ الصباح توافد المدعوون من شرشابة، ومن القرى المجاورة، ونحرت الذبائح، ووضعت القدور على النار، ومدت الموائد، وأكل الناس وشبعوا، وفى

الأرض الفضاء المجاورة لأرض إبراهيم نصبت خيمة كبيرة، وجيء بالجياد العربية الأصيلة التى أخذت ترقص على أنغام المزامير، ودقات الطبول، وأغانى الصبايا، وفى المساء عقد الشيخ عبد القادر الشاذلى مجلسًا كبيرًا لقراءة الأذكار، وتلاوة «المنظومة»، وتسابق المغنون فى الإنشاد بمدح الرسول، وبالابتهالات والتواشيح الدينية التى تأخذ بمجامع القلوب، وأخذ الشباب فى ركن من الأركان يلعبون بالسيوف والعصى، ولقد حضرت وفود من «ميت ميمون» وعلى رأسهم أخوة مباركة من عائلة البابلى، ومن «ميت المخلص» من عائلة الكريونى والرفاعى وهواش والمغنى وأبى رمضان، كما شرف الحفل فوج من سنباط وعلى رأسهم توفيق بك الخشن العمدة الذى أصر على الحضور بنفسه، ونفر من عائلة السعدنى بكفر حسين، وعائلة الشيْتانى من كفر السّناديّهْ، وعائلة سليمان وعامر من كفر السِّيحميّة، وعائلة ربيع من كفر الجَزِيرَهْ، وعائلة أبو حسين من شُبر املِّس، وقد اجتمع فى هذه الليلة سبعة من عمد النواحى، وكانت مفاجأة الحفل

الكبرى هى حضور «العزب بك أمين»، وتهامس الناس فى كل مكان: «معقول؟ أبو العز سليم يأتى بنفسه؟ كل شىء يمكن أن يحدث إلا هذا، والغريب أنه أتى وليس معه محمد بن بحراوية . . . لقد تصرف الرجل بلباقة . . . ولعله يريد أن يفتح صفحة جديدة من العلاقات التى تَعْفى على آثار الماضى الأسود».

ولقد هم إبراهيم عبد اللطيف باستقباله استقبالاً حافلاً لائقًا، وترنم بالبيت الشعرى القديم الذى يقول:

يا ضيفنا لو جئتنا لوجدتنا

نحن الضيوف وأنت ربّ المنزل

وقال أبو العز وهو يصافح إبراهيم عبد اللطيف:

- «لقد قبلت دعوتك على لسان توفيق بك الخشن».

رد إبراهيم بصدق:

- «إن مجرد تشريفك لنا قد محا كل ما مضى».

بدأ الارتياح على وجه أبو العز وقال:

- «أعرف يا بلعوطى أنك رجل طيب، تأبى الضيم، ولا تخون العهد».

خفض إبراهيم رأسه خجلاً، وابتسم قائلاً:

- «إننا بخير دائمًا ما دمنا نعيش فى رحاب الله، ونلتزم بتعاليم نبيه الكريم».

والتفت إلى الشيخ عبد القادر الشاذلى صهره قائلاً:

- «أليس كذلك يا مولانا؟».

قال الشيخ بصوت ندى رقراق:

- «يقول مولانا رسول الله: تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى أبدًا... كتاب الله وسنتى».

لقد أصيب الناس بالذهول عندما وقعت أعينهم على وجه «أبو العز سليم» فى القرية، وكادوا يشكون فيما يرون، وأخذوا يعيدون النظر مرة بعد مرة، وهم يتساءلون فى دهشة: هل هو أبو العز؟ لكن الأمر مؤكد، ومع أنهم يكنون له بغضًا كثيرًا قديمًا، إلا أنهم استبشروا خيرًا بهذه

المبـادرة التى لم تكن تخطر لهم على بال، وتمنوا أن يكون ذلك بداية لحل الكثير من المشاكل التى كدرت حياتهم، وسببت لهم الكثير من الهموم والخسائر والمخاطر، لكن سرعان ما اندمج الناس فى طقوس الفرح، وأخذوا يتابعون رقصات الخيول الجميلة، وتصفيق الحضور، وفجأة قدمت مجموعة من الغوازى يرقصن ويغنين أغانيهن المبتذلة، فصاح الشيخ عبد القادر الشاذلى :

- «هذا لا يليق . . . أعطوهن مالاً وطعامًا، وأعيدوهن من حيث أتين معززات مكرمات . . فنحن هنا فى مقام ذكر وشكر، ولسنا فى مقام عبث وفجور . . . » .

وامتدت الأفراح، وشرب الناس وأكلوا حتى شبعوا، فقد جاء الضيوف والمدعوون من البلاد المجاورة، ومعهم الكثير من الذبائح وأجولة الأرز والفواكه كهدايا مقدمة إلى الشيخ الشاذلى وصهره إبراهيم، وكان توفيق الله كبيرًا، مما حدا بإبراهيم أن يحمد الله حمدًا كثيرًا بينه وبين نفسه، وخاصة أنه لم يحدث حادث واحد يعكر صفو الليلة الجميلة .

وفى بيت إبراهيم احتشدت النسوة من البلد ومن البلدان الأخرى، وكانت البابلية تتحرك كالنحلة تعد الطعام، وترحب بالضيوف، وتغنى معهم للعروسين حتى لكأن كامل هو ابنها وليس ابن مسعدة، كما جاءت مبروكة من معزلها لتشارك فى هذه الأمسية الجميلة، وإن ظلت صامتة ترقب ما يجرى دون تعليق، لكن الملاحظ أنها رفضت أن تشارك فى تناول الطعام برغم إلحاح البابلية ومسعدة عليها.

قبيل انتهاء مراسم الفرح طلب توفيق بك الخشن أن يعقد اجتماعًا يحضره أبو العز سليم والبلعوطى والشيخ عبد القادر الشاذلى.

جلس الجميع فى غرفة داخلية فى بيت الشيخ الشاذلى، والواقع أن إبراهيم كان مستغربًا لمثل هذا الاجتماع وفى هذا الوقت بالذات، لكنه يثق فى توفيق بك الخشن ثقة مطلقة، ونظر توفيق بك إلى الجميع واحدًا واحدًا وقال:

- «لنقرأ الفاتحة جميعًا لله».

رفعوا الأكف، وقرأوها بتبتل وإمعان، وما أن انتهوا حتى قال:

- «تكلم يا أبو العز بك» .

قال أبو العز بصوت خفيض :

- «أنا رجل تقدمت بى السن ، وأريد أن أقضى بقية حياتى فى هدوء ودون صراعات أو مشاكل . . . » .

علق توفيق بك :

- «نعم القول . . . كلنا هذا الرجل ، فليس فينا من لا يطمح إلى ذلك» .

واستطرد أبو العز :

- «إنى أعرض على إبراهيم عبد اللطيف أن يكون حارسًا على أرضى كلها مقابل ما يريد . . . . مالاً أو أرضًا . . . » .

قال إبراهيم فى دهشة :

- «لقد جعلنى الله حارسًا على الخلق وأراضيهم ، فكيف أتخلى عمن وضعوا مصائرهم وثقتهم فى؟ » .

وهنا قال توفيق بك :

- «إن مهمتك الجديدة يا بلعوطى لن تصرفك عن واجباتك القديمة، وكل منهما تكمل الأخرى... فالأمن والاستقرار كل لا يتجزأ...».

تمتم إبراهيم:

- «دعونى أفكر بضعة أيام..».

قال أبو العز سليم فى إصرار:

- «لن أخرج من هنا إلا باتفاق».

رد الشيخ عبد القادر الشاذلى:

- «المبادرة بفعل الخير من الأعمال الصالحة... وهذه ليلة جمعة فيها الكثير من البركات».

وتداولوا الحديث وناقشوا شتى جوانب الموضوع، وأخيرًا قال توفيق الخشن فى ثقة:

- «إنك لن تبذل جهدًا كبيرًا يا إبراهيم... يكفى اسمك لحراسة هذه الأرض... عندما يقال للناس إن إبراهيم هو الحارس، فلن تمتد إليها يد بسرقة أو تدمير...

ويمكنك أن تعيش فى بيتك آمنًا مطمئنًا . . . يا بلعوطى لقد أصبحت ملكًا على هذه النواحى بحب الناس وطاعتهم لك . . . وأنت رجل تستحق هذا الفضل . . . وكلنا يشهد على ذلك . . . » .

عندما تم الاتفاق ، بعد موافقة إبراهيم ، وقرأوا الفاتحة ، وأخذوا العهد قبلها ، قال أبو العز سليم فى ارتياح :

- «لقد عشت طول حياتى أجرى وألهث . . . وأدوس الأشواك والدماء والحفائر . . . وأتوقع الغدر من كل جانب . . . لقد مللت . . . مللت هذه الحياة البائسة . . . وأريد أن أعيش كما يعيش كثير من الناس بلا عناء ، وسأقدم التنازلات التى ترونها» .

ثم التفت إلى البلعوطى قائلاً :

- «سأستقبلك فى بيتى غدًا وسنرتب الأمور على النحو الذى يروق لك . . . أعرف أن لك شروطًا . . . إننى موافق عليها سلفًا» .

تحركت قافلة أبو العز سليم صوب بلده ، كان يركب

جواده الأصيل وحوله نخبة من رجاله، وأصر إبراهيم أن يصحبه حتى خارج القرية، كما بعث بعدد من أبناء أسرة عبد اللطيف وفيهم أخوه السيد على حتى يبلغ بيته، وعندما دخل حدود الكفر سمع مناديًا يقول:

- «أيها الناس . . . لقد قُتل محمد بن بحراوية . . .» .

همس أبو العز سليم فى حيرة وهو لا يكاد يصدق:

- «من قتله؟» .

وتوقفت القافلة، وعاد أبو العز يقول:

- «إنها مكيدة حقيرة» .

ثم غمز الفرس بكعبه فانطلقت وهو يقول:

- «لن يذهب دمه هدرًا . . . ليس من أجله، ولكن من أجل سمعتى وهيبتى . . .» .

انطلق صوت المؤذن فوق المسجد:

- «سبحان من أمات الليل وأحيا النهار

الله أكبر . . . الله أكبر . . .



أثار مقتل محمد بن بحراوية موجة عارمة من القلق والتساؤلات، ذلك أنه جاء في وقت دقيق حساس للغاية، كما أنه أفقد أبو العز ركنًا ركينًا من عناصر البطش والقوة، وعلى الرغم من التصالح الذي تم، والاتفاق الذي عقده مع إبراهيم عبد اللطيف إلا أنه سيظل دائمًا في حاجة إلى رجال يقفون إلى جواره، فقد تتبدل الأمور، ويتغير ميزان القوى، لكن ابن بحراوية انتهى، وطويت صفحة من أحلك الصفحات في تاريخ المنطقة كلها، ولا ينكر أحدًا أن أبو العز قد فقد توازنه لهذه الواقعة المفاجئة، وأشد ما يحيره هو من الذي قتل ابن بحراوية؟ إن إبراهيم وبنوه جميعًا كانوا في العرس، ولولا ذلك لكان هو المتهم الأول، وخاصة أن ابن بحراوية قد أساء كثيرًا إلى إبراهيم خاصة، وإلى الفلاحين

عـامـة ، لكن ألا يجـوز أن يكون البلعـوطى -هو أسـتـاذ فى المكر والدهاء- قد رتب المؤامرة بطريقة جهنمية خبيثة؟ ولم يترك إبراهيم سبيلاً للفتنة ، قد أتى أبو العز سليم ، وأكد له أنه ليس له أدنى صلة بمقتل ابن بحراوية من قريب أو بعيد ، ولو أراد قتله لفعل ذلك منذ زمن بعيد ، وأنه لم ولن يلوث يده بدم قط ، فليس هذا أسلوبه فى التصدى للخصوم وجميع الناس يعرفون ذلك ، وفى نهاية الحديث قال إبراهيم عبد اللطيف لأبو العز سليم :

- «لن يهدأ لى بال حتى أعرف القاتل ، وأبلغك به» .

عندئذ اطمأن أبو العز ، وأيقن تمامًا ، أن إبراهيم وأنصاره أبرياء من دم ابن بحراوية ، وأخذ أبو العز يفكر فى ماضى ابن بحراوية ، الذى اشترك فى العديد من المؤامرات ، وقتل عددًا من المناوئين ، فهل يستبعد أن يكون أحد أقرباء الضحايا قد أراد أن يثأر منه ، ولقد بذلك رجال المباحث فى المركز جهودًا كبيرة للكشف عن غموض الجريمة ، واستدعوا عددًا كبيرًا من المشبوهين ، واستعملوا معهم

وسائل التهديد والترغيب بل والتعذيب، ولكن دون جدوى

قالت زوج أبو العز سليم:

- «لماذا تحـــزن، كلب وراح . . . لقـــد ســـبب لك المصائب».

- «كان أطوع لى من بنانى».

- «طاعته جرّت عليك مشاكل لا حصر لها».

- «أكان من الممكن أن يعصى لى أمرًا؟».

- «كان يستطيع أن يكون ناصحًا أمينًا».

- «هل جننت؟ أتريدين أن أستمع لنصائح ابن بحراوية؟ إنه عبدى، يؤمر فينفذ».

- «لو كـــان حكيـــمًـــا لحـــقق لك مـــا تريد دون دمـــاء وعداوات».

- «لم يخلقه الله إلا عبدًا . . . وهذا ما أردته».

- «والنتيجة؟».

- «إنى حزين من أجله».

وشرد أبو العز بنظراته هنا وهناك فى قلق، كان يحاول أن يستشف آفاق المستقبل المجهول، ويتمعن فى الأحداث المتلاحقة التى تجرى كل يوم، وقال فجأة:

- «ألا يكون قتله مؤامرة حقيرة لإفساد الترتيبات التى وضعتها بالأمس؟ إن العالم من حولى يضطرب بالمكائد، ويصعب على الإنسان أن يثق فى أحد».

- «لقد وعدك البلعوطى بالكشف عن سر الجريمة، فلماذا لا تنتظر حتى تتكشف الأمور، عهدى بهذا الرجل أنه صادق».

- «هذا حق يا امرأة . . . يجب أن نعترف بذلك».

وعندما خرج البلعوطى من لدن أبو العز سليم لم يقصد إلى بيته، بل توجه إلى البلاد المجاورة قرية قرية، باحثًا عن الحقيقة، إذا لابد أن يعرف من الذى قتل ابن بحراوية درءاً للفتنة، وكان إبراهيم واثقًا أنه سوف يصل إلى هدفه، فجميع القادرين على إتيان هذا الفعل يكاد يعرفهم، ثم إن ثقتهم به لن تجعلهم يخدعونه أو يضللونه، لكنه عاد فى

نهاية المطاف بخفى حنين، دون أن يعثر للقاتل على أثر، أو يمسك على الأقل بخيط من الشبهة . . .

عندما عاد البلعوطى إلى بيته منهكًا استقبلت البابلية فى إشفاق وتودد وأخذت ترفه عنه بكلماتها الطيبة، ولمساتها الحانية، وعندما قدمت له الطعام جلس ساكنًا صامتًا :

- «لا تأكل يا إبراهيم؟» .

- «لن يهدأ لى بال حتى أعرف القاتل» .

- «الجميع كانوا يتمنون موته» .

- «هذه قضية أخرى» .

- «لا يستحق الأمر هذا العناء منك» .

- «بل يستحق، حتى نحاصر الفتنة فى مهدها» .

- «لا مجال للفتنة بعد موته . . . لقد اختفى فى الوقت المناسب . . . وهذه إرادة الله يا إبراهيم . . . هل نسيت ما فعله بنا؟

وأخذ الشيخ عبد القادر الشاذلى، وقد أدرك أبعاد المأساة، يقول للناس من فوق منبر الجامع الكبير :

- «المسلم على المسلم حرام . . . دمه وماله وعرضه . . .
وقد أشار الرسول صلوات الله وسلامه عليه إلى أن حرمة المسلم أكبر من حرمة الكعبة، وإذا ما ترك للناس الحبل على الغارب، وأخذوا يثأرون لأنفسهم بأنفسهم، أو يستخلصون حقوقهم عنوة بأيديهم، فستعم الفوضى، وينتشر الفساد، وتسود الفتنة، ويتفرق المسلمون، فيستبد بهم عدوهم، ويستذلهم المستعمر، ويأكلهم فريقًا فريقًا . . . فاستغفروا الله أيها الناس، وتوبوا إليه توبة نصوحًا، وادعوه مخلصين له الدين فهو القائل: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ...﴾ [غافر: ٦٠].

وزعمت «ريحانة» أنها تعرف القاتل، فلم يصدقها كامل، وظن أنها تحاول استدراجه إلى بيتها مرة أخرى، بعد أن هجرها، ونعم بزواجه السعيد من رقية ابنة الشيخ الشاذلى، تلك التى وجد فى القرب منها، والعيش معها أيامًا رائعة جميلة لم يكن يتخيلها، ولما يذهب إليها أتت إليه قائلة:

- «أعرف أن أباك مهتم بالأمر».

- «بالطبع ، وأنت تعرفين أنه لن يهدأ له بال إلا إذا عرف القاتل» .

- «وأنا أعرفه ، كما أعرفك» .

- «الأمر جد لا هزل فيه يا ريحانة . . . . إنها قضية دم . . . » .

قالت ريحانة فى ثقة وهى تريد أن تقطع الشك باليقين :

- «أنا التى أوعزت بقتله» .

- «وما شأنك أنت؟ لقد كان أحد زبائنك» .

- «خدمة لك ، ولأبيك . . . أبينا كلنا» .

- «أنت تخرفين» .

قالت وهى تضغط على مخارج كلماتها دون لعثمة :

- «القاتل هو فريد بن أبو العز سليم» .

- «هراء إنه رجلهم الذى ضحى من أجلهم» .

وروت له تفاصيل الاتفاق الشيطانى الذى عقد بينها وبين فريد حينما أبدى رغبته فى الزواج منها بعد أن يطلقها

من زوجها، وأخذ كامل يستمع إليها غير مصدق لما تقول، وبدا له الأمر كله وكأنه مزاح أطفال سذج، لكنه رأى من الأحوط أن يحدث أباه بما سمع من ريحانة، وعندما حدث ذلك أبدى إبراهيم دهشة كبيرة، ولم يستطع أن يصل إلى قرار بهذا الشأن، وقال:

- «نحن فى زمن غريب . . . كل شىء جائز».

- «هل ستخبر أبو العز بذلك؟».

- «كيف أقول له أن ابنه هو القاتل، وليس فى يدى دليل سوى ما قالته ريحانة؟؟ من السهل أن يكذبها فريد . . .».

حينما جاء فريد إلى بيت ريحانة تحت ستار الليل البهيم، دلف إليه وهو يتلفت يمنة ويسرة، وقال وملامحه تطفح بالسعادة:

- «أرأيت أنى لا أخلف وعدى».

- «كنت واثقة».

- «هيه، ماذا بعد ذلك».

- «أنت فارس الفرسان».

- «ومتى تفين بوعدك؟» .

- «عندما تهد العاصفة . . .» .

- «ليست هناك عاصفة أصلاً يا ريحانة» .

- «انتظر وسترى» .

- «لن يتهمنى أحد ، وحتى ولو حدث فلن يفرط أب فى ابنه» .

- «ربما يكون قد رآك أحد» .

- «ولا العفاريت الزرق» .

لم تعطه وعداً قاطعًا بالتنفيذ ، لكنها أكرمت وفادته ، وقدمت له كمية من الحشيش المعتبر ، وأغدقت عليه ثنائها حتى ثمل وارتمى على الحصير يغط فى نوم عميق ، وانفض المساطيل قبيل الفجر ، أما فريد بقى ممدًا على الفراش لا يشعر بشىء ، قالت أم ريحانة :

- «ماذا سنفعل بهذا الثور؟» .

- «لنتركه ينم حتى الصباح» .

- «لكنه قاتل يا ابنتى» .

- «نحن لا نعرف».

- «بل نعرف، وعندما يضيق عليه الخناق سيذكر تفاصيل اتفاقه معك».

ضحكت فى استهتار وقالت:

- «ومن سيصدقه؟ سيرميه الناس بالجنون».

- «سيتهمونك بالتحريض على القتل».

- «ليس هناك سبب واضح لذلك».

- «لا ضرورة للسبب، ستلحق بك الشبهات، وهذا يهدد رزقنا ولن تتركنا الشرطة، بل ستقبض علينا متلبسين وسيخربون بيتنا، ما لنا ولهذه المشاكل؟».

- «دعى الأمر لى... إن رجال الشرطة يتقاضون الثمن مالاً وحشيشًا».

- «سيختلف الأمر... وأنا أرى أن نرحل عن شرشابة فى هذه الأيام، حتى تهدأ العاصفة».

- «ومتى هدأت العاصف؟».

لم يكف إبراهيم عن البحث والتنقيب، لأنه لم يقتنع بما قاله ابنه كامل تمام الاقتناع، وقد علم إبراهيم من خلال تحرياته المكثفة أن محمد بن بحراوية الذى وجدت جثته فى الترعة الكبيرة، كان قد رآه البعض يدخل أحد البيوت ليلاً فى شبرا الديب، ولم يخرج منه، وأراد إبراهيم أن يتأكد من هذه الواقعة، ويعرف صاحب البيت، وبعد ذلك علم أن هذا البيت هو ملك «راغب المغربى» الذى اعتدى على كامل فى إحدى الليالى، وأدرك إبراهيم أن هذه المعلومة التافهة ليست لها أى دلالة، لأن راغب وابن بحراوية أصدقاء من قديم، ومع ذلك فلم يصب بالإحباط وواصل جهوده فى التقصى والبحث يعاونه فى ذلك عدد من الشباب المخلصين المدربين على الكتمان. أما أبو العز سليم فقد اعتكف فى منزله لا يدرى ماذا يفعل، لأن قتل رجله الأول ضربة قاصمة لسلطانه، واستهزاء بمركزه وتاريخه الحافل الذى لم يجرؤ أحد من قبل على تحديه، وكان أبو العز على يقين من أنه سيعرف الجانى، ورصد لذلك مبلغًا من المال، ليس من أجل أهمية ابن بحراوية بالدرجة الأولى، ولكن من أجل سمعته هو . . .



من الأمور التى تلفت النظر أن مقتل ابن بحراوية ظل لغزًا، وأن كل من تحوم حوله الشبهات ينكر بشدة ارتكابه الجريمة، ويدلل على قوله بالبراهين القوية، لكنه فى نفس الوقت يشعر بالفخر والاعتزاز لدرجة أن كل إنسان تمنى أن يكون هو القاتل، وأن تعلق به الشبهات، بشرط ألا يُدان ويحاكم، مما حدا بأحد العلماء الأزهريين أن يقول:

- «لقد ضاع دمه بين القبائل، ولن يستطيع آل بحراوية ولا غيرهم أن يعادوا الناس جميعًا...».

ومن الأقوال التى ترددت بين الناس أن ابن بحراوية ذهب إلى قرية «دهتورة» قبيل العصر ليشترى حمارًا حصاويًا ذاعت شهرته، ومنذ تلك اللحظة لم يعد ابن بحراوية، وزعم زاعم أن ابن بحراوية توجه إلى مدينة زفتى

لزيارة طبيب معروف نظرًا لأنه كان يعانى من آلام عِرق النّسا، لكن التحريات لم تستطع الوصول إلى الحقيقة المؤكدة حول مصرعه، ولهذا كثرت الأقاويل والشائعات، وتناقضت المعلومات والتحديات، فلم يزدد الأمر إلا غموضًا، لكن المؤكد أن ابن بحراوية قد قتل، وأن تقرير الطبيب الشرعى ذكر بأنه ضرب على رأسه بآلة راضّة كسرت جزءً من عظام الجمجمة، وأنه ذبح بآلة حادة قطعت شرايين عنقه ومجرى التنفس العلوى أسفل الحنجرة، وكان ذلك هو سبب الوفاة.

حضر السيد على إلى شقيقه إبراهيم عبد اللطيف، وقد كان يجلس وحيدًا مهمومًا، لأنه لم يعثر على الجانى، على الرغم من وعده المؤكد لأبو العز سليم بأنه سوف يقبض عليه، عندما دخل السيد على قال أخوه:

- «أغلق الباب».

- «أتيت إليك ببداية الخيط».

- «تكلم فقد ضاقت نفسى».

- «ابن بحراوية لم يخرج من بيت راغب المغربى إلا جثة هامدة».

- «كيف عرفت؟؟».

- «من المرجح أن يكون قد قتل فيه، ولم تخرج جثته على ما يبدو إلا فى وقت متأخر من الليل بعد أن نام الناس».

- «ثم ماذا؟».

- «المحير فى الأمر أن راغب المغربى لم يكن فى بيته النصف الأول من الليل».

- «ألم يذهب فريد أبو العز سليم تلك الليلة إلى البيت؟».

- «لم يذكر أحد ذلك».

صمت إبراهيم برهة، ثم نهض فجأة وقال:

- «هيا بنا».

لكن الوقت متأخر، لقد اقترب منتصف الليل».

- «هذا أنسب» .

ركب كل واحد منهما فرسه وانطلقا تحت جنح الظلام
ارتبك راغب المغربى . وزوجته «عديلة» حينما سمعا دقًا عنيفًا على باب بيتهم ، وسارع راغب بفتح الباب ، ووجد نفسه وجهًا لوجه أمام إبراهيم عبد اللطيف ، وهتف فى رعب :

- «أجئت لتعاقبنى ؟» .

- «تعرف أنى عفوت عنك ، ولو أردت الانتقام بعد عدوانك على ولدى ، لجعلت لحمك طعامًا للكلاب والغربان» .

ثم استطرد بعد توقف :

- «لكنى أتيت الليلة لأمر آخر» .

ساد وجهه الشحوب ، وفرت زوجه إلى الداخل ، فهتف بها إبراهيم :

- «انتظرى يا عديلة» .

عادت عديلة مهرولة، ثم ارتمت على قدمى إبراهيم تقلبهما وتقول:

- «ارحمنى وسامحنى».

- «إذا أخبرتنى بالحقيقة».

شهقت عديلة باكية، واختلطت الدموع بالكحل فى عينيها الواسعتين الجميلتين، كانت فى الثلاثينيات من عمرها، وكانت تتمتع بجمال ظاهر لا يخفى على الناظرين، قالت فى تحدٍ وشماته:

- «نعم أنا قتلته... انتهز فرصة غياب زوجى، ودخل على ومعه زجاجة خمر... هجم على... كان يريد اغتصابى بالقوة... تظاهرت بالموافقة... ثم أحضرت الفأس... أنت تعرف الباقى...».

- «تكلمى...».

- «ضربته بكل قوتى على رأسه بمؤخرة الفأس... فقد وعيه، أحضرت السكين وذبحته... أصابتنى حالة من

الجنون . . . لم أكن أدرى مـاذا أفـعل . . . وجلست إلى جوار جثته مذهولة حتى عاد زوجى متأخراً . . . » .

- «وماذا قال راغب؟» .

رد راغب قائلاً :

- «سيسوقوننا إلى المشنقة هذا ما قلته . . . وإذا نجونا من المشنقة ، فلن ننجو من بطش أبو العز سليم» .

هز إبراهيم رأسه وقال :

- «وبقيـة القصة معروفة . . . حمل زوجك الجثة فى جوال على حمار ثم تسلل إلى الترعة ورمى بها فيها» .

قال راغب :

- «هذا ما حدث بالضبط» .

تدخلت عديلة قائلة :

- «قلت له يا راغب هيـا نرحل عن هذا البلد ، ونذهب إلى الشرقية أو الصعيد ، حتى ننجوا بأنفسنا» .

أردف راغب قائلاً :

- «الهـروب إدانة . . . هذا مـا قلتـه ، ولابد أن نبـقى ونتكتم الأمـر ولن يشك فينا أحـد ، لأن ابن بحـراوية كـان صديقًا عزيزًا ، ولم أتصور أنه سيخوننى . . . » .

ثم جثت عديلة ، وأمسكت بيد البلعوطى مستغيثة :

- «لقد وثقنا بك ، وسلمنا لك رقابنا ورقاب أبنائنا» .

التفت السيد على إلى أخيه قائلاً :

- «وماذا سنفعل فى هذه الورطة؟» .

- «العدل ولا شىء غير العدل» .

قالت عديلة :

- «إذن ستسلمنا للحكومة ، أكان من العدل أن أفرط فى شرفى . . .؟» .

هز إبراهيم رأسه وقال :

- «تلك هى القضية» .

ثم عاد يقول :

- «هيا يا راغب أنت وعديلة... احملا الأولاد... وخذا حماركم وجاموستكم... ولترحلوا معى جميعًا إلى شرشابة... أنتم فى حمايتى...».

تسللوا عبر الحقول والناس نيام، حتى بلغوا مأمنهم قبيل الفجر تحت رعاية البلعوطى الذى أفرد لهم حيزًا فى بيت شقيقه السيد على، ولم يكن بالبيت سوى زوجة السيد على وولده سليمان وابنتاه حميدة وعائشة، وهم صغار السن.

وفى الصباح الباكر ذهب إبراهيم إلى الشيخ عبد القادر الشاذلى، وروى له القصة، ثم اجتمعنا بعد ذلك مع محمد بك جمال الدين عمدة الناحية، واتفقوا على أن يتعاونوا فى إجراء محاكمة عادلة لراغب المغربى وزوجته، وتوكيل محامٍ ممتاز للدفاع عنهما على نفقة إبراهيم عبد اللطيف.

حينما دخل إبراهيم على أبو العز سليم فى دواره بادره مرحبًا، ثم أجلسه إلى جواره وهو يقول:

- «هل عرفت القاتل؟».

- «لقد وعدتك».

- «من هو؟» .

- «لى شروطى يا بك» .

كانت كلمة «شروط» تضايق أبو العز ، لكنه بدأ عهداً جديداً مع البلعوطى الرجل الصادق القوى الذى أصبح حارسًا رسميًا لأملاكه ، ولهذا كظم غيظه وقال :

- «يقال إن ابنى فريد فعلها ، أتصدق؟» .

- «لا . . البعض يحلو لهم ادعاء البطولة» .

- «لكنها جريمة يا بلعوطى ، فكيف يدّعيها؟» .

- «لأنه واثق أنك لن تفرط فيه . . إنه ولدك . . يريد أن يكون فريد بطلاً شعبيًا . . ثم . . . أعنى . . ماذا أقول؟ لقد أراد أن يقدم رأس ابن بحراوية هدية لامرأة عشقها قلبه» .

- «ما هذا العبث؟» .

- «تلك هى الحقيقة . . لكن ابنك لم يفعل» .

- «من قتل ابن بحراوية إذن» .

- «شروطى أولاً».

- «ما هى؟».

- «أولاً: عدم الاعتداء على الجانى».

- «ثانيًا: يا بلعوطى؟».

- «تقديمه لمحاكمة عادلة».

- «هل هناك شرط ثالث؟».

- «أن يظل فى حمايتى حتى يصدر الحكم».

- «لقد أطلعت يا بلعوطى، ولم أعد أطيق الصبر».

- «هو الذى قتل نفسه...».

ضحك أبو العز سليم وقال:

- «أتسخر منى يا إبراهيم؟».

- «اسمعنى يا سيدنا... ماذا تفعل امرأة يريد ابن بحراوية أن يغتصبها فى غياب زوجها وهو مخمور؟».

- «تحطم رأسه».

- «هذا ما فعلته عديلة زوجة راغب المغربى».

حملق أبو العز فى دهشة وقال:

- «عـــديلة... امـــرأة تقـــتل ابن بحـــراوية.. لا أصدق... إنه يأكل أربعة مثلها... قل كلامًا غير هذا يا بلعوطى، لقد ضربه الجناة على رأسه وذبحوه... اسمع يا بلعوطى لماذا لا يكون ابنى فريد قد دفع لراغب المغربى مبلغًا من المال حتى يتحمل دم ابن بحراوية».

واستغرقت المقابلة وقتًا طويلاً، ولم تنته إلا وقد اقتنع أبو العز سليم بما قاله إبراهيم، وقد ارتاح أبو العز لما جرى لابن بحراوية أخيراً، إذ ليس له يد فى قتله، وابنه برىء من دمه، وكذلك خصوم أبو العز وأصدقاؤه على السواء ليس لهم دخل بتلك الجريمة الغريبة التى لم يتوقعها أحد.

وحينما جاءت الشرطة والنيابة لاتخاذ الإجراءات القانونية مع المتهمين، خرج أهالى شرشابة، وكثير من أهل القرى المجاورة ليشاهدوا المرأة «الشريفة» التى قهرت الشيطان، وسفكت دم الباغى، ولم تستسلم أو تهرب، بر

واجهت بقوة يعجز عن مثلها كثير من الرجال، كانت «**عديلة**» تمشى فى الشارع والأغلال فى يديها، والشرطة من حولها، وأخذت النسوة يزغردن لها، ويغنين بالأهازيج الشعبية، ويصفقن. . . وارتجلت إحدى الشاعرات الشعبيات أغنية بسيطة كان لها أكبر الصدى فى النفوس:

يا عديلة شرفتينا

ودبحتى ابن الذين

نفديك بنور عينينا

وحياة الهادى نبينا

يا عديلة شرفتينا

عرضك علينا غالى

يا أم الجبين العالى

أفديكى بروحى ومالى

يا غنوتى وموالى

يا عديلة شرفتينا

البلعوطى وياكى

والروح والقلب معاكى

شرشابة ماشية وراكى

وتدعى الله يرعاكى

يا عديلة شرفتينا

كانت مظاهرة، من جل امرأة شريفة، لم تشهد المنطقة لها مثيلاً من قبل، وأصبحت عديلة أسطورة من الأساطير، ألّفوا عنها المواويل، وتسابقوا فى تقديم التبرعات، حتى المحامى الذى تولى الدفاع عنها، وأعلن فى ثورة حماسية، أنه متطوع دون مقابل، والحقيقة أن إبراهيم عبد اللطيف لم يقصر فى دعمه لها، وتفرغ بضعة أيام لرعاية هذه القضية التى هزت المشاعر، وشغلت الناس، وقد أحسنت النيابة صنعًا حينما أفرجت عن عديلة وزوجها بكفالة مالية بسيطة، دفعها إبراهيم عن طيب خاطر.

يقول الشيخ عبد القادر الشاذلى :

- «يا سبحان الله . . . يضع سره فى أضعف خلقه، من

يـ[illegible] أن [illegible]رأة [illegible]صرع هذا الغـ[illegible]ـل؟ لكنها إرادة. . . أراد أن يخو[illegible] [illegible]استنقع الذي حفـ[illegible] لنفسه، وعاش فيه».

أما [illegible] [illegible] [illegible] فقد [illegible]:

– [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] جهها راغب حاول قتل ولدي [illegible]ما من أجل بضـ[illegible] [illegible]جـ[illegible]ـات دفعـهـا له ابن بحرا[illegible]ـة . . أما عـ[illegible] فقـد قتلت ابن بحراوية حماية لعرضها وثأرًا للضحا[illegible] [illegible] [illegible].

١٤

جاء فريد يجرجر أذيال الخيبة، تسلل كاللص إلى بيت ريحانة، كان يشعر بالخجل والتضاؤل واليأس، لم يكن يعرف كيف يواجه ريحانة، وماذا سيقول لها، لكن آثر أن يترك الأمر للظروف، إن كل ما يهمه الآن هو أن يستمتع بحلاوة حديثها، وأنس مجلسها، وفى سبيل ذلك فهو مستعد لأن يتحمل تأنيبها وتقريعها، وماذا يفعل غير ذلك؟ لقد أصبح أسير هواها، وعبداً «للكيف» الذى توفره له، فلم يعد بقادر على أن يسلوها أو يحرم نفسه من المخدرات الجيدة التى لا يدخلها غش، لقد مات ابن بحراوية وانتهى الأمر، ولا يهم من قتله، يكفى أنها تخلصت منه فى النهاية، وهذا ما كانت تريده، لكنه فى الواقع لا يمكنه أن يفهم سر العداء الذى تكنه له، لماذا أرادت التخلص منه، مع

أنه كان أحد زبائنها، ولم يعكر صفوها، أو يعترض مشيئتها في يوم من الأيام، إن ريحانة امرأة غريبة التصرفات ويصعب فهم نواياها فى كثير من الأحوال.

استقبلته باسمة، لكن بسمتها كانت تنطوى على شىء من السخرية والاستخفاف، قالت:

- «أهلا بسبع «البرمبة»... تعال».

نظر إليها فى إمعان:

- «أنا ابن أبو العز سليم... احذرى».

- «أنت فريد... لا أكثر».

- «لقد قضينا على ابن بحراوية، وكان الأمر بتحريض منى».

- «ألا تكف عن ادعاء البطولة؟».

- «تعرفين أن راغب المغربى من رجالنا».

- «وزوجه عديلة، أهى من نسائكم».

- «بالطبع... كل البلد من عبيدنا».

- «كفى عنجهية . . . لم يعد فى هذه البلاد سيد إلا البلعوطى» .

قال فى غضب :

- «من يكون البلعوطى؟» .

- «حاميكم وحامى أراضيكم وأموالكم . . لولاه لأكلتكم الذئاب» .

- «إنه مجرد حارس عندنا يتقاضى أجره» .

- «خسئت . . . » .

- «أتشتميننى يا ريحانة؟» .

- «لأنك تهرب من الحقيقة» .

- «والحقيقة أننا سادة هذه البلاد دون منازع» .

- «والحقيقة المرة أن مشروع زواجنا فشل يا بطل» .

- «ولماذا لا ننعم بغير زواج؟» .

- «إن ريحانة ثمنها غال ، ولا تفرض فى نفسها» . سدد إليها نظرات غاضبة ، وقال :

- «إنى أعرفك . . » .

- «وأنا أيضًا أعرفك يا فريد» .

- «أعطيتك كل شىء ، وأنت لم تعطنى أى شىء» .

- «ولم لا ، أننى أبيع لك الجنة كل مساء» .

- «جنة الوهم . . . » .

- «أفضل من جحيم الواقع» .

أمسك بالنرحيلة ، وقربها من فمه ، وهو يقول :

- «بسرعة ، وإلا فقدت عقلى» .

ادفع أولاً . . .

وضع يده فى جيبه ، وأخرج حافظة نقوده المنتفخة ، ثم أمسك بعدد من الريالات الفضية ، وألقى بها فى حجرها ، وأخذت ترص فيه الفحم المشتغل والمعسل المخلوط بالحشيش ، وغمغم بعد أن جذب عددًا من الأنفاس :

- «لماذا لا يأتى كامل؟» .

أدركت ما يرمى إليه ... ثم قالت فى عصبية .

- «وما شأنك به؟» .

- «كان من خاصة الخاصة»

- «إنه رجل غير كل الرجال ... الكثير من شهامة أبيه» .

- «لكنه تخلى عنك» .

- «لم أكن أطمع فى شىء منه إلا المودة» .

- «وهذه الأخيرة استولت عليها رقية ابنة الشيخ الشاذلى بعد الزواج» .

- «هذا حقه . . . كنت واثقة أنه سيهجر ...» .

- «لماذا؟؟» .

- «لأنه تربية إبراهيم عبد اللطيف» .

- «ألست حزينة على ذهابه؟» .

تنهدت فى ألم ، وقالت :

- «كل الحزن، لكن ما الحيلة؟».

-«لو كنت قوية فعلاً لاستطعت إعادته إليك برغم أنف الدنيا كلها».

شردت إلى بعيد قائلة:

- «هناك أشياء كثيرة فى الحياة نفشل فى الاستحواذ عليها».

- «أهو اليأس؟».

- «تعودت عليه».

- «من يراك لا يشك لحظة فى أنك سعيدة».

- «إننا نعيش.. ونأكل... ونلهو.. وهكذا تمضى حياتنا».

اقترب منها، والنرجيلة فى يده:

- «إذن تعالى لنلهو».

- «مكانك، وإلا أحرقتك بالنار».

وتوقف الحوار حينما حدثت ضجة فى باحة البيت فى الدور الأرضى، وقدم زوج ريحانة على عجل، وقد كسا الشحوب وجهه وبدا مرتبكًا مذعورًا، حينما دخل على زوجه ومعها فريد، هتف:

- «اختبئ يا فريد بك».

قال فى اضطراب:

- «بوليس؟».

- «لا . . . بل أكبر».

- «ماذا؟».

- «البلعوطى وصل . . .».

صرخ فريد وريحانة معًا:

- «البلعوطى؟؟».

كانت الزيارة غريبة وغير متوقعة، إن أى إنسان يستطيع دخول هذا البيت إلا البلعوطى والشيخ الشاذلى، ولا يمكن أن يأتى البلعوطى إلى هذا المكان إلا لأمر خطير؛ ذلك لأنه

أتى بنفسه ، وكان فى إمكانه أن يبعث إليهم فيسارعوا بتلبية طلبه ، وهرول الجميع لاستقباله مرحبين ، وجلس إبراهيم على مصطبة فى الصالة مفروشة بالحصير ، وأمامه على الأرض جلست ريحانة وأمها وزوجها :

- «جئت بنفسى» .

ردت ريحانة :

- «شرف كبير يا سيدنا» .

- «وأريد أن ينتهى الأمر فى هدوء» .

- «كلامك أوامر لا تقبل المناقشة» .

- «كل كلام قابل للمناقشة إلا أقوال رسول الله وكتابه» .

- «أنت ولى أمرنا ، وحامينا ، وناشر العدل بيننا» .

تنحنح ثم قال فى هدوء :

- «وهل من العدل أن نفسد الشباب بالمخدرات» .

ردت ريحانة :

- «أنها ترويح . . وتسلية . . . وعلاج لهمومهم» .

وردت أم ريحانة :

- «ونحن لا نجبر أحداً على القدوم إلينا» .

وأردفت ريحانة :

- «ومعظم زبائننا من خارج شرشابة» .

وقال زوج ريحانة :

- «وأنا لا أتعاطاها» .

وعادت ريحانة تقول :

- «باب رزق لنا ، لو كنا نملك ما يقيم الأود لما فعلنا» .

قال إبراهيم فى هدوء حذر :

- «لقد سكتنا عنكم سنوات . . . بعض المدمنين باعوا أملاكهم وأفلسوا . . . وتشرد نساؤهم وأبناؤهم . . وكثير من الشباب فسدت أخلاقهم ، وأقدموا على السرقة

وارتكاب الفواحش. . . وكما تعلمون فإن المخدرات محرمة بنص الشرع والقانون. . . والشيخ الشاذلى أفتى بحرمتها. . ».

قال زوج ريحانة :

- «لكن يا سيدنا لم يرد ذكرها فى القرآن. . إنما حرمت الخمر».

- «اصمت يا ولد. . أنت تاجر مخدرات ولست مفتيًا».

قالت ريحانة :

- «نحن الذين سنتحمل الوزر. . . حتى عساكر المركز من زبائننا».

- «الوزر تتحمله البلدة كلها».

ردت ريحانة والدموع فى عينيها :

- «أنرحل عن البلد يا سيدنا؟».

- «لم أقل ذلك. . كل ما فى الأمر أننا سنساعدكم فى

عمل مشروع تجارى ترتزقون منه . . هذا أفضل ألف مرة من السجن وخراب البيوت».

لم تكن ريحانة مقتنعة بما يقول إبراهيم عبد اللطيف، لأنها تعتقد أن غيرها فى البلد أو البلاد المجاورة سوف ينتهز الفرصة ويتاجر فى المخدرات، ويكسب من ورائها المئات، ولم تكن تريد أن يعود زوجها جزاراً كما كان فى بداية حياته، ولا تريد لأمها أن ترجع مرة أخرى بائعة متجولة، تعرض الأقمشة والمناديل والكحل والروائح على النسوة فى البيوت، ولا ترغب ريحانة فى أن تتاجر بالجبن والزبدة والسمن والدواجن، وتنقلها من الريف إلى طنطا وزفتى كى تبيعها هناك، وتربح منها مبالغ زهيدة، إن تلك الحياة أشبه ما تكون بالفقر المقنع، إنها لم تعرف العزة والاكتفاء والتقدير والشبع إلا بعد أن تاجرت فى المخدرات، من خلالها كونت ثروة، وتعاملت مع عدد من كبار الناس، وأصبح الجميع يجاذبونها أطراف الحديث ويبتسمون لها، وينادونها يا «معلمة» وأهل القرى والكفور المجاورة يعرفون من تكون المعلمة ريحانة، ويتقربون منها ويخطبون ودها.

قالت ريحانة وقد احتقنت عيناها وأصبحتا بلون الدم :

- «إنك يا سيدنا تحكم علينا بالإعدام» .

- «بل أريد لكم الحياة الآمنة النظيفة» .

- «أليس كل إنسان حراً يا سيد الأحرار؟» .

- «الحرية يا ابنتى يجب ألا تلحق الضرر بالآخرين» .

- «إنهم يأتون بمحض إرادتهم» .

- «لابد ألا نعطيهم الفرصة لذلك ، ونسد باب الفتنة» .

- «أهو أمر نهائى يا سيدنا؟» .

- «بل رجاء يا ريحانة . . » .

- «وإذا لم تفعل؟» .

- «تخليت عنكم . . . » .

- «ما معنى ذلك؟» .

- «أنتم تفهمون معناه . . . » .

وصمت برهة ثم قال :

- «أتدرين من أين تأتى المخدرات؟».

- «من تجارها».

- «بل من الإنجليز الذين يهربونها إلينا ليدمروا حياتنا».

- «المخدرات فى كل الدنيا.. وكانت موجودة قبل الإنجليز.. وستبقى بعدهم..».

وقف إبراهيم، ثم قال:

- «ما على الرسول إلا البلاغ.. سلام الله عليكم».

وخرج البلعوطى...

لكن صدى كلماته لم يزل يرن فى آذانهم، كانوا يجلسون ووجوههم ترشح بالحسرة، والدموع تبلل أهدابهم، والحزن يمازج نظراتهم، الأم تجلس عاجزة مقهورة لا تدرى ماذا تفعل، وزوج ريحانة يجفف عرقه ويغمغم بكلمات غير مفهومة، وعندما علم الرواد بخروج البلعوطى تجمعوا من مختلف الحجرات، والتقوا فى الصالة يتساءلون عما جرى. وأصيب الجميع بغم وإحباط، واندهشوا لما فعله إبراهيم عبد

اللطيف، إنه رجل طيب عادل، لكن لا يصح أن يدس آنفه فى كل شىء، إن قضية «المزاج» مسألة شخصية، وكل صاحب مزاج له الحق فى أن يتصرف كيف يشاء، إن هموم الدنيا ومشاكلها لا تعد ولا تحصى، وقال مدمن قديم معروف اليدين والوجه والعنق، ذاهل النظرات.

- «إن الأطباء فى هذه الأيام يعالجون آلام الناس بالأفيون. . . عندما أجريت لى جراحة بواسير. . أجاركم الله. . . ألا تعرفون ما هو الخبور. . . نار يا ناس. . . ولم يهبط الألم إلا بحقنة المورفين، إن الأطباء يكتبونه فى وصفاتهم. . . وإذا كنت على صلة وثيقة بأحد الصيادلة تستطيع أن تشترى منه ما تشاء وإن كان الثمن أزيد قليلاً. . . ثم إن الحشيش مفيد للرجال وللنساء على السواء. . . هاهاها لماذا لا تضحكون؟ لا تقلبوها غمًا. . سيبقى الحشيش والأفيون حتى قيام الساعة. . . وكذلك الخمر. . . آه. . . تذكرت هل إذا تاجرت ريحانة فى الخمر سيسمح لها؟ إنهم يبيعونها فى المدينة. . . والكبراء يشربونها فى الحفلات الرسمية. . . وفى البيوت. . .».

وقف فريد فى وسط الجمع وقال :

- «إن البلعوطى قد تخطى حدوده . . ليس له حق فى إصدار الأوامر وسن القوانين . . . لو وجد من يشكمه لما فعل ذلك ، أيظن نفسه من الأسرة العلوية الحاكمة . . » .

صاحت ريحانة بحزم :

- «كفى . . . لا تجروا علينا مزيداً من المشاكل . . لقد اتخذت قرارى وانتهى الأمر» .

قال فريد :

- «وما هو؟» .

- «سنرحل إلى زفتى ، ونشترى بيتًا هناك ، ونعيش حياتنا كما نشاء ، بل وفى حماية الشرطة . . . إننى أعرف ما أقول» .

قال فريد :

- «ولماذا لا تأتون إلى شبرا الديب» .

- «لا يستطيع أحد حمايتى هناك . . . لا أنت ولا أبوك» .

- «غير معقول . . .».

- «بل معقول جداً . . . [illegible] لم يستطع حماية رجله الأول، ثم سلطان البلعوطي [illegible] . . إلى قربنكم . . . وإلى ما هو أبعد من ذلك . . . [illegible] مملكة البلعوطي واسعة . . .».

قال فريد في غضب :

- «إن أردت قتلناه».

- «لن تستطيع . . . ويجب أن تفهموا انى أحبه».

- «بعد كل ما حدث؟؟».

- «بل أحبه أكثر . . . لقد اخترنا الطريق المملوء بالأشواك، وارتبطت حياتنا به. ولم نعد نستطيع الفكاك، وسنمضي حتى النهاية، والبلعوطي بريد أن يأتي بالمعجزات في زمن فاسد ليس مجالاً لمعجزات [illegible]».

ولم تكد تمر أيام قليلة، حتى حملت ريحانة وأمها وزوجها متاعهم على جملين، ثم حطوا الرحال في مدينة زفتى . . .».

١٥

منذ أن تولى إبراهيم عبد اللطيف حراسة الأرض، والاطمئنان يبسط ظله على القرى والبيوت، والناس يحرثون ويزرعون ويسقون ويحصدون دون مشاكل، وانشغلوا بأرزاقهم وأعمالهم ورعاية أسرهم، وانخفضت لدرجة كبيرة السرقات وحوادث الاعتداء والسطو بصفة عامة، وتقلمت أظافر العصابات المتمردة التى لا تخفى أسرارها عن إبراهيم، الذين كانوا يقولون عنه «له فى كل خرابة عفريت» كناية عن أن عيونه ينبثون فى كل مكان، وحاول أفراد هذه العصابات البحث عن مصادر رزق أخرى آمنة، ومن آن لآخر يركب إبراهيم فرسه، ومعه أخوه السيد على، وولده كامل، ويتجولون فى أنحاء الحقول، أحيانًا فى الصباح، وأحيانًا أخرى فى المساء، وكأنه يقول «نحن

هنا»، والفلاحون يستقبلونه بحفاوة كبيرة، وترحاب بالغ، ودعوات صادقة لا نفاق فيها ولا رياء، ويعرضون عليه مشاكلهم المتعلقة بتوفير مياه الرى، وبإمدادات السماد الكيماوى، وعقبات التسويق، وآفات الزرع، ولقد كان إبراهيم خبيراً بهذه الشأن فى المدن الغربية، كما كانوا يستفتونه فى أمور فنية أخرى مثل مواعيد بذر البذور وأنواعها، ومواعيد الرى والحصاد وما إلى ذلك. وأحياناً يكون الفلاح فى حاجة إلى جاموسة ليشرب أولاده منها اللبن، وليستخدمها فى أمور الزرع كالحرث وإدارة الساقية، فيشترى له إبراهيم -أو أحد القادرين- الماشية بحيث يكون إنتاجها مناصفة، لقد وثق الناس به، وأصبحت حياتهم ومستقبلهم مرتبطان بوجوده، وهم بذلك سعداء قانعين، بالإضافة إلى أنه قد اتفق مع أبو العز سليم على شروط عادلة لتأجير الأراضى من ناحية القيمة الإيجارية، ووقت تحصيلها، والمعونات الضرورية اللازمة للفلاحين كقرض يسددونه عندما يجمعون المحاصيل، وإذا كانت مشاكل المستأجرين مع أبو العز سليم قد حلت فى تلك الفترة، فإن

مشاكل أخرى قد ظهرت، وذلك لأن الخواجات من أصل يونانى يملكون مساحة كبيرة من الأراضى، ويؤجرونها للفلاحين، وهذه الأراضى تمتد من مدينة المحلة حتى زفتى، ولم يجد إبراهيم صعوبة تذكر فى التفاهم مع الخواجات. . . الذين سلموا بحكمة، وارتضوا شروطه، وخاصة بعد أن علموا باتفاقه مع أبو العز سليم، وعدد من هؤلاء الخواجات يقيمون بقرية شرشابة، ويحترفون فيها تجارة البقالة، وإعطاء القروض بالربا، وعدد آخر منهم يقيم فى المحلة الكبرى، وقلة قليلة اختارت العيش فى القاهرة أو الإسكندرية، ولقد كان هؤلاء الخواجات على قدر كبير من الذكاء والدهاء، فقد تجنبوا حدوث أى اصطدام مع الفلاحين، ولم يتعاملوا معهم مباشرة، وإنما عن طريق وكلاء لهم من الفلاحين أنفسهم.

ولقد استطاع أبو العز سليم أبان تلك الأيام أن يخلد إلى الراحة والهدوء، ولم يتأثر وضعه كثيراً بمصرع محمد بحراوية، بل لعله حمد الله فى قرار نفسه على أن خلّصه منه فى الوقت المناسب، ولم يكن يجهل أن ابن بحراوية

نقطة سوداء فى تاريخه، فقد حظى بأكبر قدر من السخط والكراهية، وكان الناس يعزون انحرافاته وطغيانه إلى مساندة أبو العز سليم له ماديًا ومعنويًا، وما أن مات مخلب الشيطان، حتى تفرق أتباعه، ولجأوا إلى العزلة والصمت والاستسلام حتى لا يتصدى لهم الناس بالانتقام، فما أكثر جرائمهم التى امتدت لسنوات طوية، وتحسنت العلاقة بين أبو العز سليم وبين عمد النواحى وخاصة توفيق بك الخشن، ومحمد بك جمال، وسنباط وشرشابة هما القريتان الكبيرتان اللتان تتميزان بالقوة والثروة فى المنطقة، كما تحسنت علاقته أيضًا مع الإدارة فى المركز وفى المديرية، وأصبح أبو العز سليم يحلم بأن يحصل على إنعام الملك فؤاد عليه بلقب «الباشاوية» مهما كلفه ذلك من مال، وانشغل بهذا الأمر انشغالاً كبيرًا، وتذكر أبو العز سليم أن عمره قد تقدم دون أن يكون له أحفاد، لأن بناته لم يتزوجن برغم تقدم السن، وكذلك أولاده الذكور وفكر أن يخطب ابنة توفيق بك الخشن لابنه فريد، لكن المباحثات التمهيدية فى هذا الموضوع لم تبشر بالنجاح، وربما شعر أبو العز سليم

بكثير من الضية والخرج لأن الرفض يعنى الإهانة بالنسبة له، ومن الغريب أن ... حمد بك جمال الدين رفض هو الآخر أن يتزوج ابنته لعريه

لم يكن ... وحزنه بسبب ذلك فهو يعلم ... بها ولده، الذى لا يفيق من ... ويلهث ... ويعاشر الساقطات فى ... اللصوص ... فى الإجرام والمشبوهين، ... للسيطرة والعنجهية، ... التظاهر بالطاعة العمياء، ويعدد ... الصفات التى لا يستحق فريد شيئًا منها، ... من أن يزوج ولده إحدى بنات ...، ... خطير يدفعه ويدمغ سمعته بالضعف والتنازل ...، ومع ذلك فقد خطرت له فكرة ... عنها، لكن زوجته «أم فريد» أقنعته ... إلحاحًا متواصلاً حتى قبل بتنفيذها ... اللطيف يخبره بالانتهاء من جمع ... ماله عن طريقة بيعه، قال:

- «اجلس إلى جوارى يا إبراهيم» .

وجلس إبراهيم، وأخـذا يشـربان الشـاى، ويأكـلان الفكاهة معًا، وأخيرًا قال أبو العز :

- «فى يوم من الأيام كـرهتك أشـد الكراهيـة، وتمنيت موتك» .

قال إبراهيم مبتسمًا :

- «عفا الله عما سلف» .

- «أتصدق ذلك؟» .

- «الإنسان يا بك كثيرًا ما يكون أسيرًا للظنون وللمشاعر المتناقضة التى تسيطر عليه . . . أغلب الناس يحدث لهم ذلك» .

رد أبو العز بلهجة صدق واضحة :

- «لكنى اليوم أحبك كما لم أحب أحدًا من قبل» .

- «وهذه نعمة كبرى نحمد الله عليها . . .» .

بكل معنى الكلمة، قلّ أن يجود بمثلك الزمان. . . إن أملاكك ضئيلة. . . ليست مثلى ولا مثل توفيق بك. . . لكنك أصبحت صاحب أكبر رصيد من الحب ومن النفوذ فى هذه المنطقة والناس يظنون أنك مبعوث العناية الإلهية. . .

شعر إبراهيم بالحرج، وبدت حبات العرق تلمع على جنبينه القمحى اللون، واتسعت ابتسامته المجاملة وغمغم:

- «أنا دون ذلك بكثير».

- «بل الحق أقول يا بلعوطى».

- «مجاملة أشكرك عليها».

- «من يزعم أنك لست الرجل الأول فى هذه المنطقة يكون كاذبًا ومجافيًا للحقيقة».

أفاق إبراهيم من حرجه عندما سمع أبو العز سليم يقول:

- «هل تقبل مصاهرتى؟».

هتف فى دهشة :

- «مصاهرتك أنت يا بك؟» .

- «نعم . . . إننى أخطب ابنتك لابنى [illegible]» .

- «لكن . . . » .

قاطعه أبو العز قائلاً :

- «أعرف أنه فاسد الأخلاق ، لكن زواجه من ابنتك سيصلح حاله ، ويعيده إلى الطريق المستقيم ، وسأكون حريصاً على تأمين مستقبلها [illegible] . . . سأكتب لها من الأرض والمال ما تشير أنت به . . . » .

هتف إبراهيم عبد اللطيف :

- «هذا شرف لم أحلم به» .

- «أنت خير من عرفت فى هذه النواحى» .

- «لكن ابنتى الكبرى «أسماء» تزوجت منذ سنوات ، والصغرى «نجية» مخطوبة . . . وليس لى من البنات غيرهما» .

ارتُجّ أبو العز سليم، وشعر بإحباط شديد، لو كان يتكلم مع إنسان آخر غير البلعوطى، لطلب منه، بل لأمره أن يفسخ الخطبة من أجله، ومن أجل ولده، وهذه تضحية واجبة لسيد الأرض، لكن البلعوطى ليس بالرجل الذى ينقض العهد، أو يتنكر لوعوده، لهذا لاذ أبو العز سليم بالصمت، وعزا ما حدث إلى سوء حظ ولده.

قال إبراهيم:

- «إنى أشعر بعميق الأسف يا بك».

- «إنها مشيئة الله يا إبراهيم... لقد أردت حفيداً لى تجرى فى عروقه دماءك ودمائى مختلطة، لعل التوازن يتحقق فى جيل جديد...».

- «الدنيا ليس بالطيبين والطيبات».

التفت إليه أبو العز بك وقال:

- «من خطب نجية...».

- من عجيب الصدف أن اسمه أبو العز، ولعلهم سموه على اسمك... أبو العز جمال الدين...».

- «أهو قريب لمحمد بك جمال الدين» .

- «نفس الأسرة» .

غمغم أبو العز سليم قائلاً :

- «الطيبات للطيبين» :

ثم رفع أبو العز سبابته وقال محذراً :

- «لبيق ما جرى بيننا الآن سرآ، ولا يطّلع عليه أحد» .

- «سأكتمه حتى الموت ، ولن يعرفه أحد حتى أهلى» .

وعندما نهض إبراهيم مزمعاً الرحيل ، وقال :

- «ماذا سنفعل بمحصول القطن؟» .

- «تصرف كيف شئت . . » .

- «ليس هذا من اختصاصى» .

- «إذن خذه إلى الخواجة «خوريمى بناكى» فى طنطا ، وقل له هذا قطن أبو العز سليم ، وسيكمل المهمة» .

حينما عاد أبو العز سليم إلى بيته كاسف البال ، استقبلته

أم فريد فى قلق، كانت تستطيع أن تستشف ما به إذا تملت وجهه ونظراته، قالت :

- «خيراً».

- «. . . ومن أين يأتى الخير؟ لقد أصاب النحس أولادك».

- «ماذا جرى؟».

- «ابنة البلعوطى مخطوبة».

وأسرع أبو العز سليم بالدخول إلى حجرة النوم، كان يشعر بإرهاق بالغ، والصداع يكاد يحطم رأسه، وعيناه محمرتان كأنهما الدم، وارتمى على السرير وهو يشعر بدوار، وتمتم :

- «أحضروا الطبيب . . أشعر أن الضغط مرتفع وكذلك السكر».

حينما أتى الطبيب كان أبو العز فى شبه غيبوبة، واستطاع الطبيب فى خلال ساعتين أن يوقظه، ويصلح

وضعه الصحى، وأمره بألا يتخلى عن النظام الغذائى الموضوع، وأن يلتزم بالتعليمات فى دقة متناهية وإلا كانت العواقب وخيمة، كما أن الطبيب أكد على المخالطين له، بألا يبلغوه بأية أنباء مثيرة، وأن يحجبوا عنه كل ما يؤدى إلى التوتر، وعليه أن يلتزم الفراش لمدة أسبوعين على الأقل، وبعد أن خرج الطبيب سمعت أم فريد زوجها يقول:

- «أهكذا أنت يا دنيا؟؟».

ثم بصق وهو يقول:

- «تفوه» عليك يا دنيا.

اقتربت منه زوجه، وأخذت تمسح بحنان على رأسه ووجهه ولحيته، وتدلك له يديه ورجليه قال لها:

- «وصيتى إذا أنا مت أن تجهزوا لى قبرًا جديدًا لا يدفن فيه غيرى، وأن يكون مجهزًا بلحاف ووسادة وحشية من الحرير. إنى آنف من الرقاد على الحصى، وليكن كفنى من الجوخ الأخضر... لقد كنت عالى لمقام فى الدنيا... ويجب أن تكرّمونى فى قبرى».

قالت زوجته :

- «دعك من هذا الكلام ، إنها مجرد وعكة طارئة» .

- «لكن الموت سيأتى يومًا ما» .

- «بعد مائة عام إن شاء الله . . . » .

جلس فى فراشه فجأة وقال :

- «أريد أن أرى الشيخ عبد القادر الشاذلى . . . رجل الله» .

ثم صمت برهة وقال :

- «النظر فى وجهه يريحنى . . كلماته تبعث السكينة فى نفسى ، مثل هذا الرجل لا يخاف الموت ، فقد عاش آمنًا فى طاعة الله . . . آه . . . ليتنى كنت مثله . . » .

أدركت زوجه ما يعانيه من انفعالات ، فأخذت تهدئ من روعه ، وتسكب فى أذنيه كلمات الأمل والثقة بالله ، وتذكره بأن أجداده عاشوا حتى المائة عام ، وأنه قادر على التغلب على المرض بالصبر والعلاج والإيمان ، ولم تتوان عن إرسال الرسل إلى الشيخ عبد القادر الشاذلى .

همس أبو العز على أبواب النوم:

- «لم أر فريد».

- «سافر منذ عشرة أيام ولم يعد. . .».

وراح فى سبات عميق.

□□□

١٦

سرى نبأ مرض أبو العز سليم بين الناس كحدث مهم شد الانتباه، وكان وقع ذلك النبأ متفاوتًا بينهم، وإن كانت الغالبية تبدى قدرًا غير قليل من الشماتة، ويعتقدون أن ذلك المرض عقاب إلهى نزل به، لما ارتكبه من مظالم، وما اتصف به من قسوة وجشع، ويرددون الآية الكريمة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤]. بينما قالت فئة قليلة من الناس، إن الله أراد أن يبتليه فى الدنيا كى يطهره من الذنوب، ويخفف عنه حساب الآخرة، وبضعة نفر قالوا: من يدرى لعل الله يغفر له، فإن الأعمال بخواتيمها، وأصبح مرض البك حديث الساعة فى «شبرا الديب» وشبرا قلوج وغيرهما من القرى المجاورة، وخاصة قرية شرشابة وسنباط، واهتم الأمر كذلك قرّاء القرآن فى المآتم، وأخذوا

يعدون أنفسهم لليوم الكبير الذى طال انتظاره، وسبحان الله مصائب قوم عند قوم فوائده، أما أهل بيت أبو العز سليم فقد داهمه الخوف والهلع، فعلى الرغم من استنكارهم لقسوته عليهم ولتصرفاته الجافة، إلا أنه الأب الذى حفظ عيهم هيبتهم، ووفر لهم رغد العيش، ولا يدرون ماذا يفعلون أو ماذا سيفعل الناس بهم إذا أدركته المنية لا قدر الله.

وفى هذا الجو الغائم الكئيب الذى ينذر بالأحزان، عاد فريد بن أبو العز سليم بعد غيبة استمرت أسبوعين ومعه امرأة من البندر، تلبس الملابس الإفرنجية، وتضع على وجهها السافر مساحيق الزينة، هتفت أمه:

- «من هذه؟».

قال فى تبجح:

- «زوجتى».

- «منذ متى؟».

- «لا يهم... قُضِى الأمر».

- «لكن أباك لا يعلم».

- «سأعيش فى بيت خاص بى، وإذا رفضتم عدت بها من حيث أتيت».

- «يا للمصيبة!! أتتزوج دون أمر أبيك».

- «إن أبانا نسى ذريتـه، وليس لديه الوقت للتـفكيـر فيها. . . إن العمر يمضى وهو لا يشعر بنا».

- «أبوك مريض يا فريد».

- «لا أملك إلا أن أدعو له بالشفاء».

وشاع الخبر فى القرية، وأخذ الناس يتناقلون روايات عدة عن فريد وزواجه، وكان أشهر هذه الروايات وأقربها للتصديق أنها راقصة من مدينة «ميت غمر» التقى بها فى بؤرة من بؤر المخدرات والفن الرخيص، وأنها مكرت به، ودبرت أمر زواجها منه، وانتهزت فرصة اختلائه بها، وأوعزت إلى إحدى رفيقاتها باستدعاء الشرطة، فتم ضبطه، وسيق إلى القسم، وهناك تم عقد القرآن بينهما، ثم قضى فريد وعروسه بضعة أيام فى بيت ريحانة الجديد فى

مدينة «زفتى» التى لا يفصلها عن «ميت غمر» إلا الكوبرى الكبير الشهير المقام على فرع دمياط للنيل.

قالت أم فريد والدموع فى عينيها:

- «إن أباك لا يستطيع تحمل مثل هذا الخبر، بل ربما قضى عليه وهو فى دور النقاهة... فلتأخذ زوجك وترحل على الفور، وسأدبر لك المال الذى يكفيك، ألا تعلم أن أباك كان يبحث لك عن عروس مناسبة؟.

قال فريد:

- وأنا لا أريد البقاء هنا، لم يعد لدى رغبة فى العيش بهذه البلدة الكئيبة.

ورحل فريد إلى طنطا دون أن يعرف أبوه بما جرى، وساد البيت حزن عميق، وتوارت البسمة عن الشفاه، وانطفأت الفرحة فى العيون، وغلب الصمت على الكلام وبكت بنات أبو العز بكاءً مراً، كن يبكين أباهن، وحظهن التعس، وخيبة أخيهن.

صاح الرجل المريض فى سريره :

- «يا أم فريد» .

أتت مهرولة :

- «تحت أمرك» .

- «هل جاء فريد؟» .

- «لم يأت بعد» .

- «لكأنى أسمع صوتًا كصوته» .

- «ما أظنه سيغيب طويلاً . . . لابد أن يأتى» .

- «لقد خيب ظنى . . . كنت أعتبره خليفتى . . . وها هو يتسكع فى أنحاء الدنيا ، لا يفكر إلا فى اللهو والملذات» .

اغتصبت ابتسامة مفتعلة وقالت :

- «كُنت فى شبابك تفعل الكثير» .

- «لكنى لم أبدد ثروتى بل زدتها ، ولم أفقد احترامى» .

- «الولد سر أبيه . . .» .

وقدم أحد الخدم مسرعًا وقال :

- «لقد حضر الشيخ عبد القادر الشاذلى على فرسه الأبيض» .

تحامل أبو العز وجلس ثم قال :

- «هل معه أحد؟» .

- «رجلان لكنهما بقيا فى الخارج لحراسة الفرس» .

- «إذن أدخلوه علىّ . . . » .

قدم الشيخ الشاذلى خافض النظرات ، يخطو فى تؤدة وهدوء ، تسبقه ريح المسك ، ويشيع حوله جوًا روحيًا من الطهر والنقاء ، ثم صافح أبو العز ، وقبله من رأسه بعد أن ألقى عليه السلام ، ثم أخذ يمسح على صدره وكتفيه وهو يقرأ هامسًا آيات من القرآن ، وأدعية نبوية ، وأخيرًا قال بصوت مسموع :

- «يا شافى . . أنت الشافى . . . لا شفاء إلا شفاؤك . . أذهب البأس ، رب الناس . . . إلخ شفاء لا يغادر سقمًا» .

اختطف أبو العز سليم يد الشيخ أمام دهشة الحاضرين، ثم أخذ يلثمها ويقبلها بحرارة، ويبللها بالدموع، وينشج قائلاً:

- «أنت طبيبى».

- «صدق رسول الله: عليكم بالشفائين العسل والقرآن».

- «أشعر بأن روحى تعود إلىّ».

قال الشيخ:

- «ضع يدك يا أبو العز على صدرك وقل ورائى: رب اشرح لى صدرى، ويسر لى أمرى، واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى.. قلها سبع مرات».

وسادت فترة قصيرة هتف الشيخ بعدها بصوت عالٍ:

- «قم من سريرك يا عبدالله.. قف على قدميك... واخرج من دائرة المرض... وامض معنا إلى حيث مجلسك المعتاد.. وانفض عنك هموم الأمس... واعتصم بالله».

نظر أبو العز إلى وجه الشيخ مليًا، رآه يفيض بالنور، وعيناه تشعان صفاء وإيمانًا وأملاً، ولحيته البيضاء تقطر حبًا وطهرًا. . ثم وثب أبو العز من فوق سريره، ووقف، ثم مشى، وخرج إلى الصالة، وانطلقت فى البيت الزغاريد، وحينما وصل أبو العز ومعه الشيخ إلى المجلس، أخذ الناس يتقاطرون من كل صوب لتهنئة أبو العز بالشفاء، ولينعموا برؤية الشيخ الشاذلى وتقبيل يديه، وطلب الدعاء منه.

وصاح أبو العز وقد استشعر قدرًا كبيرًا من الطمأنينة والعافية:

- «انحروا الذبائح. . . ووزعوا لحومها على الفقراء والمحتاجين. . . اطعموا كل جائع. . ولا تردوا طالب صدقة أو إحسان. . ».

وعلم الناس بما يجرى فى بيت أبو العز سليم، فسبحان مغير الأحوال، ومقلب القلوب والأبصار، إن ما يحدث اليوم لم يكن له شبيه فى ماضى الأيام السوداء، إن ربك على كل شىء قدير، لو أن ابن بحراوية حى الآن لأصابه الجنون.

وقضى الجميع يومًا حافلاً فى القرية، ونفضت القلوب الكثير من أحقادها الراسخة، وأدرانها العتيقة، والناس سرعان ما يغفرون وينسون، وخاصة إذا حاقت الكوارث، ونزلت النكبات، وانجلى عنها حب وصفح وغفران، وفى المسجد الكبير أفاض الشيخ الشاذلى عليهم من أحسن الكلام، وأجمل الوعظ، حتى اشتد بهم التأثر فبكوا، وأخذ يقبل بعضهم بعضًا، وهم يحلمون بغد أفضل أكثر أمنًا وسلامًا ورخاءً..

وقد تصادف فى هذه الأيام أن قام الإنجليز بنفى زعيم الثورة سعد زغلول خارج البلاد، فهاج الناس وماجوا، وخرجوا فى مظاهرات عارمة تجوب أنحاء الديار المصرية، وتصدى الإنجليز للثائرين، وقتلوا أعدادًا كبيرة منهم، وفى مدينة زفتى تجمع أعيان القرى وعمدها من مختلف النواحى، وفيهم الشيخ الشاذلى، وتوفيق بك الخشن، وأبو العز سليم، وإبراهيم عبد اللطيف، ومحمد بن جمال الدين وغيرهم، وخطب فيهم الشيخ الشاذلى مؤكدًا أن الجهاد أصبح «فرض عين» وأن على الجميع أن يبادروا بحماية

إسلامهم وكرامتهم وأعراضهم وأموالهم، دون أن يخافوا فى الله لوم لائم.

وقد تعرضت زفتى لهجوم شرس من الإنجليز راح ضحيته عدد لا بأس به من الشهداء، وقد حمل عليهم «يوسف الجندى» ورجاله وهزموهم وطاردوهم إلى مكان بعيد، واستقلوا بإدارة أنفسهم، وسمع الناس عن شيء اسمه «جمهورية زفتى» التى أصبحت حدثًا بارزًا لا ينساه أحد.

قال إبراهيم عبد اللطيف:

- «الإنجليز أقوى منا عدة، لكننا أقوى عددًا وإيمانًا، وسوف ينهزمون بإذن الله مهما طال الزمن».

وعلق الشيخ الشاذلى:

- «الملك لله الواحد القهار، وإرادته غالبة، وإن ينصركم الله فلا غالب لكم..».

أما أبو العز سليم وقد تماثل للشفاء فقد قال:

- «لا يفل الحديد إلا الحديد، وقد أخذنا درسًا من ثورة عرابى ومن تصرفات الخونة الذين لن يغفر الله لهم..».

وأردف توفيق بك الخشن :

- «أرى من الضرورى أن نشن عليهم حرب عصابات ، فلا يستطيعون أن ينعموا بالبقاء فى بلادنا ، والاستيلاء على خيراتنا . . .» .

وهز محمد بك جمال الدين رأسه وقال :

- «لابد من استنفاد الوسائل السياسية أولاً ، وهذا ما أعتقد أن سعد زغلول سيفعله . . وأعتقد أن دهاء سعد هو سبب نفيه ، ذلك أن الإنجليز أدركوا أنه يعرف ما يفعل وأن الشعب وراؤه . . .» .

وفى ضوء القمر خرجت النسوة فى شوارع القرى يغنين :

قولوا لعين الشمس ما تحماشى

أحسن غزال البر صابح ماشى

كانوا يودعون سعد زغلول وهو ذاهب إلى منفاه ، وكانوا على ثقة أنه سيعود رافعًا لواء النصر .



ارتفعت أسعار محصول القطن، وتحسنت حال الفلاحين من شتى النواحى، ووجد ملاك الأراضى دخلاً كبيرًا لم يروا مثله من قبل، فكان لهذا الرخاء الكبير انعكاساته على نفوسهم وأحوالهم الأسرية والمعيشية، وخفت حدة الصراعات الاجتماعية، وكثرت حفلات الزواج، وانتعشت أسواق البيع والشراء على مستوى القرية والمدينة، كما زاد عدد الأبناء الذين يرسل بهم آباؤهم للمدارس كى يتعلموا، وفى هذا الوقت تحسنت الحالة الصحية لأبو العز سليم. وفاجأ الناس بزيجة جديدة، ثم أخذ عروسه وانتقل إلى مدينة طنطا، وبنى فيها بيتًا كبيرًا من عدة طوابق، واستقر هناك تاركًا كفر الديب، وتاركًا أراضيه الشاسعة لإدارة من يثق فيهم من الموظفين والخفراء، وتحت حراسة

قوية يتولاها إبراهيم عبد اللطيف، وتصالح مع ولده فريد بعد أن طلق زوجة الراقصة، وأعاده إلى القرية لينوب عنه فى بعض المهام الحيوية المتعلقة برعاية الأسرة، وليشرف على تنفيذ تعليمات أبيه فيما يتعلق بتوجيهاته المتصلة بأمور الزراعة، يساعده فى ذلك بقية إخوته، الذين كبروا، واكتسبوا قدرًا من الخبرة.

وفى أحد الأيام جاء محمد إلى والده إبراهيم وقال:

- «تعلم يا أبى إنى قد كبرت فى عزك».

- «وماذا تريد؟».

- «الزواج».

- «هل اختارتها لك أمك مبروكة؟».

- «بل أنا... رأيتها... وراقبتها فأعجبتنى».

- «كم عمرها؟».

- «خمسة عشر عامًا».

- «أليست صغيرة؟».

- «الصغير يكبر يا أبى».

- «لابد وأنها جميلة».

- «لقد دخلت قلبى».

واعتدل إبراهيم فى جلسته، وسأل:

- «من أية عائلة؟».

- «عائلة نوفل.. أبوها الحاج إبراهيم».

ابتسم إبراهيم عبد اللطيف وقال:

- «إبراهيم نوفل صديقى، ويجمع بين الزراعة وتجارة الأقمشة.. وهو طيب وأمين ولا يفرط فى حقه قط..».

- «أفهم من ذلك أنك موافق؟».

- «بالتأكيد، لكنى لن أذهب إليه لأخطبها لك إلا إذا كنت على يقين بأنه سيوافق...».

- «ليست هناك أية مشاكل، ولم يبق إلا موافقتك، ثم الاتفاق على قيمة «الشبكة» والمهر..».

وتم عقد الزواج بعد مناقشات حامية تتعلق بالصداق والمقدم والمؤخر، وتجهيز العروس، فقد كان الحاج إبراهيم نوفل دقيقًا فى مثل هذه الأمور، ويدرس الأمور بشتى تفاصيلها دون أن يترك شيئًا للصدفة، وقرر إبراهيم أن يتزوج ولده محمد فى بيته، وأن تعود أمه مبروكة معه، وخصص الغرفة الأولى على يمين الداخل لزفافه، وهى تقع فى مقابل حجرة أبيه فى المدخل، ومسحت الأفراح الجديدة، كل الخلافات القديمة، ورحبت البابلية ومسعدة بذلك، وكان إبراهيم عبد اللطيف يجد متعة وسعادة أن يكون أولاده وزوجاتهم إلى جواره، لقد تزوج كامل بابنة الشيخ الشاذلى، وهو يقيم معها فى الدور الثانى بالمنزل، وها هو محمد فى الدور الأرضى، وفى قابل الأيام سيتزوج ولده عبد الفتاح والصغير أحمد، لكن هل سيعيش حتى تكمل فرحته؟ وكان حفل زفاف محمد حفلاً لائقًا، لكن لم يكن على مستوى حفل أخيه الكبير كامل.

●●●

صدر الحكم ببراءة راغب المغربى ، أما زوجه عديلة التى قتلت محمد بن بحراوية ، فقد صدر ضدها حكم خمس سنوات مع إيقاف التنفيذ ، وهو شبيه بالبراءة ، وقد بذل المحامون جهدًا رائعًا فى مرافعاتهم ، وتكللت جهودهم بالنجاح ، واستقبل الأهالى الحكم بالرضى والترحاب ، وعادت مواكب الأفراح تحيط براغب وعديلة ، وأخذوا يرددون الأغانى التى سبق ترديدها ، وكانت الظروف مهيأة لكى يعود راغب وزوجته وأولادهما إلى بيتهم القديم فى شبرا الديب ، تحت كفالة أبو العز سليم .

وجاء يوم العيد فى ظل الرخاء ، بعد شهر عامر بالطاعة والعبادة والخيرات ، ولبس الأطفال والكبار الجديد ، وأخذ رنين قطع النقود المعدنية يسمع فى كل مكان ، وكان إبراهيم يجلس أمام منزله وأمامه كومة من القروش ، يوزعها على الأطفال والسائلين ، وعلى يمينه ذبيحة كبيرة يوزع منها اللحم على فقراء القرية كعادته فى كل عيد ، وكان يفعل ذلك وهو يشعر بسعادة قصوى ملأت قلبه ، وانعكست على ملامح وجهه المشرق ، وثغره الباسم ، وصوته الممتلئ بالقوة والثقة والسرور .

وفجأة سمع صوت إمرأة تصيح وتصرخ وتستنجد، وعندما اقتربت منه رآها حاسرة الرأس، ملطخة الوجه بالطين، هتف:

- «أم ريحانة؟؟ ماذا جرى؟».

- «بنتى... بنتى... أتيت إليك يا كبير القوم... ليس هناك من ينجدنا سواك».

وقف وعصاه المعوجة فى يمينه:

- تكلمى يا امرأة:

- «أخذوها وزوجها إلى السجن فى ليلة العيد».

هز إبراهيم رأسه، لقد فهم كل شىء:

- «مباحث المخدرات قبضوا عليها».

- «هذا ما حدث... ماذا نفعل؟ ليس لنا فى زفتى حبيب».

- «ألم تكونوا فى حماية الشرطة؟».

- «امتصروا دماءنا، ثم غدروا بنا».

- «أدوا واجبهم، وقد حذرتكم . . لكن الجشع» .

ولم يغب عن ذهن إبراهيم أن أضرابهم من تجار المخدرات قد نقموا على منافستهم الجديدة الجميلة «ريحانة» فدبروا لها مكيدة تبعدها عن طريقهم، ودفعوا أكثر، قال إبراهيم:

- «عرفتم الخطر، لكنكم انطلقتم فى دربه كالعميان» .

- «انجدنا ولن نعود» .

- «تقولون هذا دائمًا . . . » .

انكبت على قدميه تقبلهما، فتراجع مستغفراً الله، ثم قال:

- «ليس أمامنا سوى توكيل محامٍ ممتاز» .

- «معنا المال» .

- «سأساعدكم على أمل أن تتوبوا وترتدعوا» .

- «أعاهدك على ذلك، وسنعود إلى شرشابة خاضعين مستسلمين» .

حينما درس المحامى القضية، واطلع على محاضر

التحقيق قال:

- «ليس أمامنا سوى الطعن فى سلامة الإجراءات، إنها هى الثغرة التى سوف أركز عليها، وأدخل منها..».

لقد ترك إبراهيم أفراح العيد وجمالها، وذهب إلى زفتى لكى يعاون ريحانة وزوجها، وهو يعلم تمام العلم أنها مخطئة، ولم يكن ليفعل غير ذلك، آملاً أن يكون هذا الدرس بداية لحياة جديدة لهما، وأن يعودا إلى رأيه فى اكتساب لقمة العيش من مصدر آخر حلال، بدلاً من أن يعيشوا على حافة الخطر الدائم، ويأكلوا لقمتهم مغموسة بالإثم.

حينما رأى إبراهيم عبد اللطيف ريحانة فى الحجز رق لمنظرها البائس، ووجهها الشاحب، ودموعها المنسكبة، وعيناها الحزينتان، واستسلامها المؤلم، كلها مشاهد توحى بالندم والحسرة، وقالت خافضة النظرات وهى تجفف دموعها:

- «خاب من لم يعش فى ظلك، ويستنير برأيك».

- «كلنا فى رعاية الله».

- «ولما وجدت الدنيا كلها تبرأت منى، قلت ليس هناك سوى سيدنا».

- «أنا أبوكم وأخوكم. . أردت أن نعيش فى قرية فاضلة تنعم بالحب والسلام».

- «لم تقل لى كلمة عتاب واحدة».

- «وماذا تفيد؟ الموقف نفسه أقوى من كل كلام».

- «أتصدقنى إذا عاهدتك على التوبة؟».

- ولم لا؟».

- «المصائب درسها قاس يا سيدنا».

- «إن الله يغفر لمن يشاء يا بنت الناس».

فى الوقت الذى كان إبراهيم يزور ريحانة، كان زوجها يقف إلى جوارها صامتًا، لا يدرى ماذا يقول، إنه سيعيش دائمًا على الهامش، ليس له رأى يذكر، كانت ريحانة هى التى تصدر الأمر والتوجهات، وليس عليه سوى التنفيذ،

وعندما كانت الشرطة والنيابة يحققان معه، لم يكن بقادر على أن يحسن الإجابة، أو يلم بمضمون الكلام، وكلما وُجه إليه سؤال يقول لا أدرى، حتى عندما قال له ضابط المباحث:

- «هل أنت حمار؟».

رد بغباء قائلاً:

- «لا أدرى».

وعلى الرغم من وسامته وامتلاء جسده إلا أن الناس كانوا يعتقدون أنه أجوف القلب والعقل، وأن ريحانة تسحبه وراءها كما تسحب البهيمة، ولا يغضب إذا ما نهرته أو شتمته، بل يقابل الإساءة بالابتسامة البلهاء، دون أن يبدو عليه آثار أى غضب أو تمرد، ولهذا قال المحامى إن وضع زوج ريحانة فى القضية أسوأ من وضعها كثيرًا، وإن براءتها محتملة، لكن إدانته تبدو مؤكدة.

وقدم عليهم فريد بن أبو العز سليم، ومعه لفافة كبيرة من الطعام، وشعر فريد بشىء من الخجل حينما رأى إبراهيم عبد اللطيف فى الزيارة.

قالت ريحانة وهى تتناول منه اللفافة :

- «فيك الخير يا فريد ، لقد تخلى عنى كل من أكلوا معى عيشًا وملحًا . . » .

- «هذا أقل واجب يا معلمة» .

- «علمت أنك طلقت الراقصة» .

- «كانت كابوسًا مزعجًا نجانى الله منه . . . المهم أنت . . . كيف حالك؟ أنا على استعداد لتقديم أية خدمات . . . » .

- «أشكرك . . لست فى حاجة إلا لمن ينتشلنى من هذه المصيبة . . . وعمنا الكبير إبراهيم عوضنى عن الناس جميعًا . . » .

فى الحبس عانت ريحانة الأمرين ، كانت بالأمس سيدة تأمر فتطاع ، وتنحنى لها رؤوس الرجال ، ويتسابقون إلى إرضائها واكتساب ودها ، ويرمون بالذهب تحت أقدامها ، حتى ينالوا منها كلمة رضى وحب ، أو يحظون بابتسامة ، لكنها اليوم معزولة عن الناس ، ذليلة النفس ، يعاملها

الحراس بجفوة وغلظة، ويسخرون منها، ويتندرون عليها، ويضربون زوجها على قفاه، وهو يبتسم ابتسامة البلهاء وكأنه لا يحس، وتنام على الأسفلت بعد أن كانت تنام على الفرش الحريرية الدافئة، حتى ملابسها قد اتسخت، ورائحة عرقها منفرة، وأصبح حلمها أن تحظى بحمام دافئ، وبعض الروائح العطرية الذكية.

قالت وهى متشبثة بأكمام إبراهيم:

- «بالله عليك لا تتركنى. . . خذنى من هذا المستنقع. . أكاد أجن. . . أنت أبى. . . وليس لى أب سواك».

أغرورقت عيناه بالدموع، رأى إبراهيم فيها الضعف الإنسانى مجسدًا، لو علم المرء ما سيحدث له، وتيقنه تمامًا، لما أقدم على الخطأ، لكن الحياة تخدع، وتمد له فى حبال الأمل، وتوهمه أن غيره -وليس هو- قابل للسقوط والعقاب، قالت ريحانة عندما همّ إبراهيم بالرحيل:

- «إننى أمــوت كل لحظة. . لا تنسى بحق الله. . وسامحنى».

وأخـذ إبراهيم يشـد أكـمـامـه من يديهـا المتـشنجـتـين تدريجيًا، ثم نظر إليها بتأثير بالغ وحرج، تاركًا فريد بن أبو العز سليم وراءه..

□□□



بدأ أبو العز صفحة جديدة فى حياته بمدينة طنطا، إذ سرعان ما تجمع حوله الأصدقاء، والأقارب، كان كل يوم يقصد أكبر وأشهر مقهى راكبًا عربته التى يجرها جوادان، ثم ينزل من العربة المطهمة بشاربه الكث المفتول، و«البندقية» معلقة بكتفه، وكذلك النطاق الذى يحتوى على ذخيرتها، والواقع أن صحته تحسنت كثيراً وإلا لما تزوج الفتاة الصغيرة التى يقل عمرها عن أصغر أولاده، وكان يجد لديها الأنس والراحة، وعاد رويداً رويداً إلى حياة الانطلاق والمتعة، مع احتفاظه بنظام الدواء والتقليل من السكريات، قال له الطبيب:

- «إنك على ما يرام، لكن الخمر ستضر بصحتك على المدى الطويل.. وكذلك التدخين...».

- «الكأس والدخان أليفان لا يفترقان».

- «الأمر يقتضى وقفة حاسمة يا بك».

- «وماذا يبقى لى من الدنيا لو تركتهما».

- «الصحة!! إنها التاج الحقيقى».

- «لابد أن يرتكب المرء حماقة ما، تلك الحماقة تجعل الحياة طعمًا لذيذًا.. أليس كذلك؟».

- «لكننا فى هذه الحالة ندفع الثمن غاليًا».

- «ليكن... كانت حماقاتى كثيرة، ولم يبق منها إلا القليل».

تخلص أبو العز من هموم الأرض والفلاحين، ولم يعبأ بشيء من ذلك، ولم يعد بحاجة إلى أمثال ابن بحراوية، بعد أن عهد بالحراسة إلى إبراهيم عبد اللطيف، وأصبح كل ما يهمه أن يأتى إليه الإيراد دوريًا لينفق منه عن سعة، وإذا لم يكفه الإيراد بادر ببيع بضعة أفدنة، وقد اشترى إبراهيم عبد اللطيف عددًا قليلاً منها.

كان إبراهيم عبد اللطيف مبتهجًا عندما علم أن زوجة ابنه كامل حامل فى شهرها الثالث، كان يهمه تواصل الأجيال، ويتمنى أن يكون له عدد كبير من الأحفاد حتى تكبر عائلته وتقوى برجالها، ودعا الله بينه وبين نفسه أن يكون حفيده ولدًا، وأن يكون قريبًا منه فى ملامحه وقوته وسلطانه، وأن تكون هناك فرصة لتعليمه أحسن تعليم، وصممت البابلية على أن تقوم بنفسها على تربية الطفل ورعايته وتنشئته التنشئة الصالحة حتى يشب رجلاً فاضلاً مثل جده، ويحمل رسالته من بعده، وكانت مسعدة ساخطة على البابلية بهذا الخصوص، وذلك لأن الطفل سيكون حفيدها، وهى الأولى بتربيته ورعايته، واتهمت البابلية بأنها طماعة، وتريد أن تستولى على كل شىء.. قلب إبراهيم.. وأولاد إبراهيم... وأيضًا أحفاد إبراهيم، وتناقشت معها حول هذا الأمر بحدة ظاهرة، لكن إبراهيم تدخل فى الأمر وقال:

- «كونا عاقلتين، وانتظرا حتى يأتى المولود بالسلامة، وبعدها نسأله عن رأيه فيمن يختار...».

أما مبروكة أم محمد، فقد قالت فى اعتزاز:

- «أما حفيدى من ولدى محمد فلن يشاركنى فيه أحد».

قالت لها البابلية:

- «اشبعى به..».

وعلم الشيخ عبد القادر الشاذلى بما يدور حول الحفيد المنتظر، فابتسم فى سعادة وقال:

- «إننى أريد أن يكون ابن رقية رجلا من رجال الله، وأنا عازم بإذن الله أن أعلمه القرآن والسنة والسيرة، وقصص الصالحين...».

ورد إبراهيم قائلاً:

- «ولم لا يكون طبيبًا أو مهندسًا أو ضابطًا».

قال الشاذلى:

- «هذا لا يمنع... ليكن ما تتمنى، لكن لابد أن نحصنه بالدين إلى جوار العلم، فلا دين بغير علم، ولا علم بغير دين...».

- «صدقت يا شخنا . . وعندئذ تتحقق القرية الفاضلة التى نحلم بها . . . » .

وكان عبد الفتاح الطالب بالأزهر جالسًا يستمع إلى ما يقول، فتدخل معلقًا :

- «كم أتمنى أن أجعله يقرأ شوقى والمنفلوطى والمويلحى وحافظ إبراهيم، والبارودى وأن يحفظ المعلقات السبع وديوان الحماسة . . .

قال أبوه إبراهيم فى دهشة :

- «ماذا تعنى؟» .

- «أعنى أن يكون أديبًا رقيق الحس، ذا شهرة واسعة، إن فن الأدب موهبة عظيمة» .

قال الشيخ الشاذلى :

- «إن التخصص لا ينفى الموهبة الأدبية . . . كان الإمام الشافعى فقيهًا كبيرًا، وشاعرًا فذًا . . وكذلك الطبيب الفيلسوف ابن سينا وغيره من علماء المسلمين فى الفلك والجغرافيا والكيمياء والفيزيقا . . . » .

وقهقها إبراهيم عبد اللطيف قائلاً :

- «إننى أشفق على حفيدى المسكين من مطالبنا الكثيرة المرهفة، كان الله فى عونه . . الله وحده يعلم ماذا سيكون . . ألا يجوز أن يكون رجل سيف وضابطًا مثل عرابى . . . » .

وشارك الشيخ الشاذلى فى المرح وقال :

- «أليس من الممكن أن يكون حارسًا مرموقًا مثل جده إبراهيم؟» .

رد إبراهيم على الفور :

- «أو وليًا من أولياء الله الصالحين مثل جده الشاذلى» .

- «أصبح الناس يحلمون كثيرًا فى هذه الأيام يا إبراهيم، ويا حبذا لو استبدلوا أحلام اليقظة بالعبادة وذكر الله والعمل الصالح . . . » .

- «لولا الأحلام لاختنقنا . . » .

●●●

عندما خرجت ريحانة من السجن بكفالة مالية هى وزوجها، قال لها:

- «أين نذهب؟».

- «إلى أهلينا فى شرشابة.. ليس لنا فى زفتى حبيب».

كانت ريحانة تشعر بالمرارة والأسى، شربت فى السجن كأس الذل والمهانة، بكت كثيراً حتى ظنت أن مخزونها من الدموع قد نفذ، لم تكن قبل ذلك تكترث لما حدث أو ما سيحدث، لا خوف ولا قلق برغم خطورة التجارة التى مارستها، أما اليوم فقد داهمتها الهموم والهواجس، وتضعضعت ثقتها فى غالبية الناس، وكاد ينطفئ توهج الحياة فى قلبها الشاب الممتلئ بالثقة والأمل، لا ضمان لشىء فى هذه الأيام التعسة.

وحينما رآها الناس فى شوارع القرية تجمهروا حولها وأخذوا يرددون:

سالمة يا سلامة

رحنا وجينا بالسلامة

لم تخرجها المظاهرة عن اتزانها وحزنها، بل مضت فى طريقها لا تنظر إلى أحد، ومشى زوجها خلفها، وقد اتسعت ابتسامة البلهاء، وأخذ يلوح بيده محييًا المحتشدين، وحانت منها التفاتة نحوه، وعندما وجدته على تلك الصورة هتفت به فى غيظ:

- «ما هذا؟ ألا تستحى... هل أصبحت زعيمًا يحيى الجماهير».

تدلت يداه فى استسلام ومشى إلى جوارها صامتًا، ولم تقصد ريحانة إلى بيتها مباشرة، بل توجهت أولاً إلى بيت إبراهيم عبد اللطيف، كان يجلس على مصطبة أمام داره، تناولت يده وقبلتها أمام الناس، والدموع تترقرق فى عينيها..

دخلت بيتها فى لهفة العاشق الولهان، تمنت أن تحتضن الجدران والثرى وكل شىء فيه، بدا لها كالصدر الدافئ الحانى، لم تعرف أن الديار عزيزة على النفس لهذه الدرجة، وتوافد الناس للتهنئة والتحية، وأخذوا ينهلون

أكواب «الشربات» الأحمر، ثم انصرفوا، كانوا يجاملونها ويواسونها بصدق دون نظر إلى استنكار البضاعة التى تتاجر فيها، وبقى عدد من المدمنين القدامى جالسين دون أن تبدو عليهم أدنى رغبة فى مغادرة البيت . .

قالت ريحانة:

- «ماذا تنتظرون؟».

أخذوا ينظرون إلى بعضهم البعض، وكان معهم فريد بن أبو العز سليم الذى أجاب قائلاً:

- «لابد أن تستأنف حياتنا من جديد».

- «لا أفهمك!».

- «أعنى أن يعود كل شىء إلى سابق عهده».

- «هذا جنون . . . فالقضية مازالت أمام القاضى».

- «ليس فى الدنيا تاجر مخدرات ينقطع عن التجارة حتى ولو شنقوه».

- «لم يعد بى قدرة على المغامرة».

- «ولماذا هذا الخوف الذى تبالغين فيه يا ستى الكل».

- «قد يقامر الإنسان بحياته مرة يا فريد بك، ولكنه من الحماقة أن يقامر بها مرة أخرى».

- «حياتنا كلها مقامرات متصلة...».

وصممت ريحانة على موقفها، وبادرت بافتتاح محل للبقالة، وأخذت تنقل إليه أنواع البضائع التى تشتريها بالجملة من طنطا، ولم تجد عيبًا فى أن تقف فى محلها من الصباح حتى المساء، وتناست كبرياءها القديم وعنجهيتها، وأخذت تخاطب النساء والرجال بلهجة ودودة رقيقة، وتداعب الأطفال وتعطيهم قطع الحلوى اللذيذة، واستطاعت خلال أشهر قليلة أن تحقق قدرًا لا بأس به من النجاح، وعندما لاحظت أن المدمنين القدامى قد التفوا حول زوجها، وأغروه بالعودة إلى تجارة المخدرات مرة أخرى، وبدأ جزئيًا يستجيب لإغرائهم أمسكت بتلابيبه فى قوة وقالت:

- «حذار أن تلعب بذيلك».

- «أنا لا أخالف لك أمرًا».

- «أنا أو المخدرات . . فاختر أينا».

- «أضحى بالدنيا كلها من أجلك يا ريحانة».

- «العودة لتجارة المخدرات معناها الطلاق».

ارتجف جسده، وبكى بحرارة، وأمسك بيدها يقبلها معتذرًا، وعندئذ خرجت أمها من غرفة داخلية وفاجأتها بقولها:

- «أما أنا فلن أتراجع».

- «ماذا تقولين يا أمى؟».

- «سأترك لك البيت وأرحل . . .».

- «لماذا؟».

- «سأستمر فى تجارة المخدرات، إن قريتنا لا تستغنى عنها، ونحن فى حاجة إلى المال الكافى الذى يسترنا، ودخل التجارة من البقالة لن يوفر لنا إلا لقمة عيش متواضعة».

قالت ريحانة فى ذلة :

- «أنت كبيرة السِّن يا أمى» .

- «وخبرت الحياة أكثر منك» .

- «لكنك أمى . . . وأخاف أن يُزج بك فى السجن» .

- «أنا التى بدأت التجارة وأنت صغيرة، والقرار قرارى . . .» .

لم تتزحزح ريحانة عن موقفها، بعد أن خرجت أمها من البيت، واتخذت لنفسها بطانة تتعاطى المخدرات، وأعادت الاتصال بموردى الصنف القدامى، واتخذت الأم عدداً من الإجراءات الوقائية التى يمكن أن تحميها من هجمات الشرطة المفاجئة، وكان من أبرز جلاسها فريد بن أبو العز سليم .

واستطاعت ريحانة بحنكة المحامى وبراعته أن تحصل على حكم البراءة فى المحكمة، لكن زوجها حكم عليه بالسجن ثلاث سنوات، وحمدت ريحانة الله على أن نجاها من تلك الأزمة الخانقة، وإن شعرت بالألم من جراء الحكم

الصادر ضد زوجها، لكنها اعتبرته فترة قصيرة سرعان ما يعود بعدها إليها، لكنها تأثرت حينما أمسكوا به، وساقوه إلى السجن وهو يقول:

- «كيف أعيش بدونك يا ريحانة؟؟ أنت روحى.. فكيف أبقى بعيدًا عنك...».

كان يبكي ويشهق كالنساء الثكالى.

أما أمها فلم يتزعزع موقفها وقالت:

- «السجن للرجال».

□□□

١٩

انتاب إبراهيم قدر كبير من الضيق، ولم يجد لديه أدنى رغبة فى تناول الطعام، وجلس فى غرفته مكفهر الوجه، لا يرد على أحد إذا ما سأله عن سبب ضيقه ، كانت البابلية تعرف كيف تتصرف معه حيال الأزمات التى تلم به من آن لآخر، ولهذا أعدت له فنجانًا من القهوة مع كوب من الماء، وظلت صامتة فترة من الوقت، ثم همست فى رقة وأدب :

- «يجب أن أشاركك فى همومك» .

- «إن الهموم لا تتجزأ . . . فإذا حملت عنى جزءًا، فستبقى بالنسبة لى كما هى ! » .

- «قد تكون لى وجهة نظر تغير رأيك نحو المشكلة» .

قال وهو ينفخ غضبًا ويمد يده بورقة :

- «جاءتنى رسالة من المعهد الأحمدى بحرمان ابنى عبد الفتاح من امتحان آخر السنة».

ضربت على صدرها فى دهشة:

- «لماذا؟ نحن لم نقصر فى حقه... وهو فى طنطا معظم الوقت».

- «إنه لم يستوف نسبة الحضور».

- «وماذا كان يفعل هناك؟».

- «ينام حتى الظهر، ثم يصحو ليتسكع فى الشوارع، هل هذا هو طلب العلم؟».

وعلمت أمه مسعدة بالخبر، فصاحت كمن جاءها خبر فقد عزيز لديها.

فقال إبراهيم متأذيًا:

- «أسكتوا هذه المرأة وإلا كسرت رأسها بالعصى».

وتجمع أهل البيت وكأنهم فى مأتم، إن ما حدث يعتبر عار كبير بالنسبة للعائلة أمام أهل البلد، وخاصة أنهم

شمخوا بأنوفهم بعد نجاحه الباهر فى قيامه بخطبة الجمعة منذ شهور، هل يستطيع إبراهيم أن يتحمل الصفعة التى ستلحق بابنه عندما يقول عنه الناس: «أزهرى وفسد» وهى العبارة الشائعة التى يلصقونها بكل فاشل فى هذا المجال.

وصممت مسعدة على أن تسافر إلى طنطا لتضرب ابنها بالنعال جزاء سوء تصرفه، وجلبه العار على أهله، ولم تستطع البابلية ولا مبروكة منعها من ذلك، ورفضت أن يذهب أحد غيرها حتى ولو كان أخوه كامل أو محمد أو أحمد، ولبست مسعدة رداءها الأسود الذى ترتديه عادة فى المناسبات المحزنة، ووضعت شالها على رأسها، وانطلقت صوب طنطا، ووقفت على شاطئ فرع النهر الذى يفصل بين ميت المخلص القرية بين شرشابة وميت ميمون، وكانت هناك مركب صغيرة تنقل المسافرين من شاطئ لآخر، وصاحت بأعلى صوتها:

- «عدّينى يا مراكبى... عبده ابنى خاب...».

وأخذت تكرر تلك العبارة وهو تولول، ثم بلغت طنطا بعد جهد جهيد، وأخذت تسأل عن العنوان الذى يسكن فيه

ولدها عبد الفتاح، دلها أحد الناس على البيت، دفعت الباب دون استئذان بسبب غضبها وتوترها، وقعت عيناها على عبد الفتاح، كان جالسًا يغسل وجهه ويديه، وكانت تصب له الماء فتاة جميلة فاتنة الملامح، وانقضت عليه بشعره المبلل فى غلظة، وقالت وهى تضربه بقبضتها اليسرى فى صدره:

- «من المحروسة؟».

- «ماذا جرى يا أمى؟ إنها نعيمة ابنة صاحبة البيت».

قالت وهى تهزه فى عصبية:

- «الآن عرفت سبب خيبتك، ولماذا لا تذهب إلى مسجد السيد البدوى، وهو قريب منك لتغسل وجهك وتتوضأ وتصلى؟ هل هذا فعل رجل يتلقى علوم الدين؟

ثم أطلقته وجلست على الأرض تبكى وتقول:

- «هل علمت أنهم حرموك من الامتحان وفصلوك».

- «أعرف».

- «كان أليق بك أن ترمى بنفسك فى البحر» .

- «المسألة علاجها بسيط . . . » .

- «كيف يا ابن مسعدة؟» .

- «شهادة مرضية من طبيب ، لا تتكلف أكثر من خمسة قروش ، كثير من الطلبة يفعلون ذلك . . . » .

هدأت قليلاً ، لكنها عادت تقول :

- «وما الذى يشغلك عن الأزهر؟» .

- «لا أفهم من الأساتذة شيئًا ، ولهذا أعتمد على المذاكرة فى البيت» .

- «تريد أن تعلم نفسك بنفسك ، من قال ذلك؟ ولماذا تركت شرشابة وأتيت إلى هنا . . . أنا فلاحة صحيح . . . لكننى أفهم . . . سوف ترى ما يفعله بك أبوك وبى ، إنه لا يتسامح فى مثل هذه الأمور . . . هل نسيت أنك لا تصلح للفلاحة . . . وأن العلم هو طريقك الوحيد . . . » .

قال دون اكتراث :

- «يمكننى أن أجد وظيفة بالابتدائية التى حصلت عليها منذ ثلاثة أعوام».

- «لم يرسلك أبوك من أجل الوظيفة. . . إنه يريدك عالمًا كبيرًا. . .».

- «قريتنا ممتلئة بالعلماء الذين يحملون شهادة العالمية، ولكنهم لا يجدون ما يأكلون. . .».

قالت أمه مهتاجة:

- «ماذا تريد بالضبط؟».

- «أريد أن أتزوج نعيمة».

صرخت ثانية وهى تقول:

- «يا خرابى. . . لو سمعك أبوك لقطع رقبتك. . . أخوك يتزوج بنت الشيخ الشاذلى. . . والثانى يتزوج بنت نوفل. . . وأنت تتزوج من فتاة لا نعرف لها أصلاً ولا فصلاً؟ هيا بنا سنعود إلى البلد فورًا. . .».

قال عبد الفتاح فى عناد:

- «لن أعود».

- «وأبوك سيقطع عنك المدد، فكيف تعيش؟ هل ستنفق عليك امرأة؟ وإلى متى؟ أتفكر فى الزواج وأنت ساقط؟».

عاد عبد الفتاح مع أمه إلى القرية، ولم يستطع أن يواجه أباه، وإبراهيم هو الآخر تجنب مقابلته، وتجاهله تمامًا، لم يكن يكرهه لأنه ابنه مهما كان الأمر، لكن كان ناقمًا على استهتاره وفشله، رافضًا لأسلوبه، وكان أشد ما أحنقه قصة عبد الفتاح مع نعيمة، إنه حقًا شاب، وتنزع نفسه إلى الحب، بل وربما إلى الزواج، وكل الشباب يفعلون ذلك، لكنهم يفكرون ويؤدون واجبهم وينجحون، ويبحثون لهم عن مصدر رزق، ثم يختارون الوقت المناسب للزواج، وإبراهيم يفهم ذلك جيدًا، وقرر إبراهيم ألا يستخرج شهادة مرضية مزودة لكى ينقذ ابنه من مأزق الحرمان من الامتحان، وحاولت البابلية أن تثنيه عن عزمه، لكنه أقسم ألا يفعل.

- «أتضيع مستقبل ابنك يا إبراهيم من أجل شكليات».

- «ليست شكليات، ولكنها أصول. . .».

- «كل الناس يفعلون ذلك».

- «لا شـــأن لى بالناس يا بابليـــة، إبراهيم لن يكون مزورًا».

- «الطبيب هو الذى يكتب الشهادة».

- «أكره التحايل، وقد أقسمت، وإبراهيم لا يحنث».

- «إذن دعنى أفعلها. . .».

- «وما الفرق؟».

- «المضطر يركب الصعب يا إبراهيم يا حبيبى».

- «عبد الفتاح هو الملوم».

- «من أجل خاطرى».

- «مستحيل. . .».

وأشاح بوجهه عنها رافضًا أى شفاعة لخطأ عبد الفتاح، وأخذ يدندن بحزن أغنية شعبية شهيرة تتحدث عن «جمل المحامل»، وهو الجمل الذى كان يحمل كسوة الكعبة كل

عام من مصر إلى مكة، وكان هذا الجمل يختار من بين الكثير من الإبل، ويتميز بقوته وجماله وضخامته، كان إبراهيم يغنى وهو ممدد فى فراشه :

يا عينى روحى لحمّال الهموم وشوفيه

شوفيه يا عين مات ولا الروح لسّه فيه

ياما قالت العين حبيبى حبيبى ربنا يشفيه

ويطلع «السوق» ويخطر مثل عاداته

«جمل المحامل» برِكْ شِمّتَ الأعادى فيه

يا عينى

يا ليلى

قلقلت البابلية حينما سمعت إبراهيم يترنم بهذه الأغنية الحزينة، فقد كانت على دراية تامة بمشاعر إبراهيم المرهفة، وتدرك على التو ما يعانيه، ولو بصورة غامضة، فهى تعلم متى يكون مزاجه منحرفًا، ومتى يكون مبتهجًا سعيدًا وخيل لها أن ظلالاً من الدموع كانت تتأرجح فى عينيه وهو يغنى،

كما كانت نبرات صوته مشحونة بالانفعال والألم، ورفض إبراهيم أن يستجيب لإلحاح البابلية وهى تسأله عما يكربه، وخاصة أن موضوع عبد الفتاح ليس بالكارثة، فإذا لم ينجح هذا العام، فإن الله سيوفقه فى العام القادم بعد أن يستوعب الدرس القاسى، وأغفى إبراهيم حوالى الساعة، ثم استقيظ على صوت الزغاريد تضج فى أنحاء المنزل، أفاق من نومه، ثم جلس فى فراشه وقال:

- «ماذا جرى يا بابلية؟؟».

- «أبشر يا إبراهيم».

- «خيراً...».

- «رزقك الله بحفيد مثل فلقة القمر... النور على جنبيه... إن ملامحه فيها الكثير من ملامحك».

تنهد فى ارتياح وقال:

- «الحمد لله... كبّروا وأذّنوا فى سمعه...».

- «إن جده الشيخ عبد القادير الشاذلى قادم، وسيفعل ذلك، إنه رجل مبارك...».

- «وأنا يا بابلية . . ألا أصلح لذلك؟» .

- «أنت الخير والبركة . . . فلتفعلها على الفور، ثم يأتى الشيخ الشاذلى ويكررها . . . » .

ترك إبراهيم سريره فى همة ونشاط، واتجه إلى داخل البيت والنسوة يفسحن له الطريق، وهن يواصلن الزغردة، ونظر إلى الوليد المغلق العينين، ثم لثمه فى حنان، وتساقطت الدموع من عينيه، ثم أخذ يؤذن فى أذن الوليد بصوت يخالطه البكاء، فأشفق الناس عليه، وساد الصمت حتى انتهى من الأذان .

قالت البابلية :

- «أتبكى يا إبراهيم، يا من خضعتْ لك رقاب الرجال؟» .

- «فاضت بى الفرحة فبكيت . . . إنى أرى نفسى . . . أرى دمى وروحى وآمالى . . . أراه راكبًا جوادًا أبيض، والناس يحيطون به من كل جانب وهو يبشر بينهم بالحب والإيمان والرحمة . . . هل أنا واهم يا بابلية» .

- «شجرة الرمان لا تثمر إلا الرمان» .

- «صدقت يا بنت الأصول. . .».

ثم ابتسم. . . وضحك. . . امتدت ضحكته، ثم قال:

- «أصبح ابنى كامل أبًا وعمره ربع قرن. . .».

وجاء موكب الشيخ الشاذلى يحفه الوقار والجلال، استقبله إبراهيم بحفاوة، واحتضنه فى حب، وابتسم إبراهيم قائلاً:

- «أعرف أننا سنختلف فى اختيار الاسم».

- «سيكون عبدالله مهما اتخذ من أسماء».

- «سأسمية اسمًا حديثًا. . .».

- «خير الأسماء ما عُبِّد وحُمِّد».

- «الحل فى الاسم المركب. . .».

- «محمد صلاح الدين مثلاً. . أو محمد شوكت. . . أو محمد نجيب. . .».

- «اتفقنا».

قال عبد الفتاح وهو يتوارى خجلاً: «جمعتم بين الأصالة والحداثة».



٢٠

قرر عبد الفتاح أن يعود إلى طنطا ويبدأ حياة جديدة، ووعدته البابلية -زوجة أبيه المفضلة- أن تقنع أباه بالاستمرار فى الإنفاق عليه على شرط أن يتخلص من إهماله وعبثه القديم، وأن ينتظم فى دراسته، ويختار منزلاً آخر غير المنزل الذى تسكن فيه نعيمة وأمها، كان عبد الفتاح مسافرًا إلى طنطا، ترن فى أذنيه كلمات أبيه التى كان يرددها دائمًا «لقد بعثت بك الأزهر لتكون عالمًا أولاً، ولم أبعثك بهدف الحصول على وظيفة، فالعلم لا يقدر بمال، والعالم الحق هو الذى يؤدى رسالته نحو الناس، وينشر بينهم «الفضيلة»، ويعجب عبد الفتاح من موقف أبيه الرجل الفلاح الذى لم يدخل معهدًا ولا مدرسة كيف يكون تفكيره على هذا النحو الفذ، لكن عجبه يتلاشى عندما يتذكر أن

العالم الحقيقى يتدفق عليه رزق الله من كل مكان. وتمنى عبد الفتاح فى هذه اللحظات أن يأكل الكتب أكلاً، أو يلتهم كل ما فيها من معلومات دفعة واحدة، إنه يشعر بحماسة شديدة لاستئناف حياته العلمية على أسس سليمة، وأن يجاور العلماء أو ليس عجيبًا أن يطلق الناس على طالب العلم «المجاور»؟ واستطاع عبد الفتاح أن يبلغ طنطا تعمر قلبه مشاعر جديدة، ورغبة صادقة فى العمل الجاد، وارتاح والده عندما علم ذلك، وخفت حدة غضبه، وآمل أن يكون حاضر ولده أفضل من ماضيه، وضياع عام من عمره أمر صعب لكن يمكن أن يتحمله برضى إذا كان عبد الفتاح عازمًا فعلاً على النهوض من كبوته واستئناف مسيرة العلم والخير والاستقامة، وعلى الرغم من أن عبد الفتاح قد تألم كثيرًا فى بداية العام الدراسى، نظرًا لأن أقرانه سبقوه، والأصغر منه سنًا لحقوا به، إلا أن استطاع أن يستوعب الصدمة خلال أيام قليلة.. ويمضى فى طريقه المرسوم.

كان إبراهيم يعيش فى جو من المتعة الروحية الفائقة، على الرغم من بعض المتاعب الصحية التى تؤرقه، على

الرغم من بعض المتاعب الصحية التى تؤرقه، فقد كان مجىء حفيده حافزًا جديدًا لمزيد من النشاط والحيوية والعمل الخيّر، هذا المخلوق الصغير الذى يزيد ثلاثة كيلو جرامات ونصف قد كان له فعل السحر فى نفس إبراهيم، مما جعله لا يعبأ بمرضه وآلامه، ويكتفى ببعض الوصفات الشعبية التى تعدها له البابلية، وعندما التقى بأبو العز سليم التقاءه الدورى، ورأى على وجهه علامة اضطراب الصحة، قال له: «يا إبراهيم لا تحمل هم شىء... افعل مثلى واضربها صرمة... إن الهموم تجلب الموت، تخفف يا رجل من أعبائك، وكل واشرب واستمتع، لن نأخذ من هذه الدنيا شيئًا... أنا مثلاً تزوجت صبية وأنجبت أطفالاً... تصور... أقسم لك أن هذا التغيير قد أذهب عنى الكثير من الأمراض والأحزان...».

لم يعلق إبراهيم على قوله إلا بكلمات قصار «الله هو الشافى» وذهب إبراهيم أثناء ذلك إلى الدكتور أحمد جمال الدين وهو من أبناء بلده، فكتب به بعض العقاقير، وأوصاه بأن يحيط نفسه بجو من المرح؛ لأن مرضه يستلزم ذلك،

كان إبراهيم بعد أن عاد إلى البلد، يستدعى معارفه من رواة المُلَح والطرائف، فيحاولون انتزاع الضحك منه، وهو يتجاوب معهم، وكانت البابلية تستدعى أيضًا صبايا العائلة والحى، وتجعلهم يرددون الأهازيج الشعبية، وهو يستمع إليهم فى غير قليل من الرضى، أما نفيسة زوجة ابنه محمد فقد كانت متخصصة فى سرد الحكايات الظريفة المسلية، وكان في الحارة شاب طيب يقوم بصناعة القفف والحبال، لكن كان ميالاً للرقص والضحك، فكان يؤدى أمام إبراهيم رقصة شعبية مشهورة ويقول:

نوم الحـــــرير شَـــــوَّكنى

من كـــثــــر نومى لوحـــدى

وتحسنت حالته الصحية والنفسية لحد ما، وظل يمارس حياته كالمعتاد، يركب حصانه، يرافقه أخوه السيد على، ويقوم بالمرور على مساحات الأرض الشاسعة التى يمتلكها أبو العز سليم وغيره من الناس، لقد بسط حراسته على الأرض كلها، وكأنها مملكته الخاصة، يخلص فى ذلك إخلاصًا كبيرًا، وكان نتيجة لذلك أن استتب الأمن، وأمن

الناس على مزروعاتهم وأموالهم ودمائهم. . . لكن هل تمضى الحياة على وتيرة واحدة. .

لقد اهتزت أرجاء البيت مرة أخرى لخبر مفجع، وخرجت البابلية لأول مرة منذ زواجها مكشوفة الوجه، حاسرة الرأس، كيف لا وقد فجعت بقتل أحد إخوتها، وهو «الجوهرى» الذى كان فى عز شبابه. . فعمره اثنان وعشرون عامًا، وخرج إبراهيم وأولاده وعدد كبير من أفراد أسرته، وكذلك فعل الشيخ الشاذلى، إن مقتل الجوهرى كارثة كبرى، تؤذن بأخطار كبيرة، وانقلبت قرية «ميت ميمون» رأسًا على عقب، وقد تفاقم الشر عندما لم تعثر أسرة البابلى على جثة قتيلها، ولم يكونوا على يقين ممن فعل هذه الجريمة، وخاف إبراهيم عبد اللطيف أن يتطاير شرر الفتنة، وإذا حدث ذلك لا قدر الله، فستزهق أرواح كثيرة، وتراق دماء بريئة وغير بريئة، وسارع إبراهيم باتخاذ موقف حاسم، وطالب أصهاره أن يلتزموا الهدوء حتى يرى رأيه، وفكر إبراهيم، كان يعلم فى قرارة نفسه أن الذى جرى هو «حادثة شرف» وأن أهل الفتاة التى أحبها الجوهرى

قد طعنوا فى كبريائهم، وهم أسرة كبيرة ذات جاه، تأبى الضيم، ولا تفرط فى الكرامة، وأرسل إليهم إبراهيم رسالة موجزة لا تحتمل التأجيل:

اكشفوا عن مكان الجثة، وإلا أبدناكم عن آخركم نحن نقدر دوافع الجريمة. . أمامكم يوم واحد.

وعثر على جثة الجوهرى مدفونة فى الرمال على شاطئ فرع النهر، ورفضت أسرة البابلى تقبل العزاء، وكانت مباركة (البابلية) تكاد تجن، ذلك لأنها كانت تحب شقيقها الجوهرى حبًا ملأ شغاف قلبها، فهى التى تكفلت بتربيته بعد وفاة أمهما حتى أصبح شابًا فتيًا وسيمًا يتيه ويختال بجماله وفتوته.

قالت البابلية فى حسرة:

- «الشيطانة هى التى أغوته، وهى التى تستحق القتل».

قال إبراهيم فى حزن:

- «الله وحده يعلم. . كان يمكن أن تكون هناك حلول أخرى غير إراقة الدماء».

- «سنطاردهم أبد الدهر ، وإذا فنى الرجال فستقوم النساء بأخذ الثأر» .

- «الخطأ مشترك يا بابلية ولن تزيد الدماء النار إلا اشتعالاً» .

- «أنسكت يا إبراهيم؟ وماذا يقول الناس عنا؟ ولم يستطع أحد أن يقمع الفتنة ، فقد أخذت أسرة البابلى بتأرها قبل الأربعين ، وحاول الخصوم أن يردوا الضربة ، ففشلوا عندما أصابوا أحد الأبرياء ، ونجا الشقيق الثانى لمباركة ، وأصبح المستقبل مفتوحًا لمزيد من الكوارث ، وكان على إبراهيم عبد اللطيف أن يتدخل حتى يحقن الدماء ، وخاصة أن الخصوم أخذوا يفكرون فى اعتبار البلعوطى أحد خصومهم لصلة المصاهرة بينه وبين البابلية ، بل جاءت الأخبار بأن هؤلاء الخصوم يدبرون للانتقاك من كامل بن إبراهيم عبد اللطيف ، مما بعث الضيق فى نفس إبراهيم لكنه تمالك نفسه ، واتخذ الحيطة والحذر ، وفى نفس الوقت ، بدأ يخطط لكى يحل هذه المشكلة العويصة ، على الرغم من إيمانه بصعوبة ذلك ، وأنها أشبه ما يكون بالسير فى حقل

ألغام، لكن إبراهيم لا يعرف اليأس، وهو يشعر بألم عميق من جراء ذلك الشام الذى راح فى لحظة طيش، ومن جراء الحزن الشديد الذى تعانى منه زوجته البابلية المسكينة، التى لا تكف عن تردد آهات الأسى والثكل، وتغنى بصوت باك ما يقوله النسوة فى تلك المناسبات الكئيبة، وتأبى -برغمَ نصائح إبراهيم- أن تكف عن ذلك:

الساعة عندك ع السلّمْ

مقتول مش قادر أتكّلم

الفرحة ماتت فى عيونى

لما الحسّاد دبحونى

الدم بيصرخ وينادى

فرحوا عزّالى وحسادى

أنا نيم ليه ومبصحاشى

وحبيبى سافر ولا جاشى

صاح إبراهيم فى غضب:

- «ما هذا الهراء يا امرأة؟» .

- «دعنى فى حالى» .

- «إن هذا لا يحيى ميتًا» .

- «النار فى قلبى يا إبراهيم» .

- «لا أريد ندبًا فى بيتى، ولن نعيش فى مناحة دائمة، هذا يغضب الله يا بابلية . . .» .

- «لم يعد فى رأسى عقل» .

- «ذلك من فعل الجاهلية» .

- «لكنه يخفف عنى . . .» .

- «خففى عن نفسك بذكر الله . . .» .

إن العصبية لم تمنع إبراهيم من أن يفكر بروية واتزان، وإذا لم يفعل ذلك، فإن نهر الدم لن يتوقف، وسيتوالى الضحايا واحدًا بعد آخر، من هنا وهناك، وسوف ينفق الجميع أموالهم على حرب خاسرة لا جدوى من ورائها، ولهذا اتصل بكبراء القوم فى المنطقة، ودعاهم جميعًا

لمجلس صلح حضر فيه مأمور المركز، وممثل للمديرية، كما حضره توفيق بك الخشن، ومحمد بك جمال الدين، وأبو العز سليم، والشيخ عبد القادر الشاذلى، وخاصة بعد أن ظهرت حقيقة مذهلة أدارت رؤوس الجميع، وبعثت الأسى فى النفوس، ذلك أن الفتاة التى راح ضحيتها الجوهرى، أثبت الطب أنها شريفة عفيفة، وأنها لم تمس بسوء، ومعنى ذلك أن الجوهرى مظلوم، وأم دمه راح هدرًا، وأن هناك دسيسة قام بها أحد الخونة للإيقاع بين الأسرتين، وقتل الجوهرى، وبعد مداولات ومشاورات وتحقيقات مضنية، حكم على الأسرة المعتدية بدفع دية كبيرة «حق عرب» لأسرة البابلى، وكان ختام المأساة اختطاف الواشى الذى كان سببًا فى الوقيعة، وإزهاق روحه بحضور مندوبين عن الأسرتين، ولم يعلم إبراهيم بالحادث إلا بعد وقوعه، ولم يهتد التحقيق الذى قامت به النيابة إلى الفاعل أو الفاعلين فى كل الجرائم السابقة، وإذا كانت مباركة قد ركنت إلى الصبر، إلا أنها لم تستطع أن تنسى شقيقها الحبيب، وكلما تذكرته سالت الدموع الحارة على خديها.

□□□



تغيرت حياة أبو العز سليم، صحيح أنه كف أذاه عن الفلاحين، ولم يعد إلى فرض سلطانه بالعنف والإرهاب، واكتفى بالدخل الذى تدره محاصيل أرضه تحت حراسة ورعاية إبراهيم عبد اللطيف، ولكنه ترك الحبل على الغرب لأبنائه فى القرية، فأخذوا يعبثون، وبعد أن كان قد تاب وأناب أثناء فترة مرضه، تكاسل فى عبادته، ولم يعد يذهب لصلاة الفجر فى مسجد السيد البدوى، والتف حوله فئة من الأثرياء المنفلتين، ونظرًا لأنه يعاقر الخمر يوميًا، فلم تكن لديه فرصة حقيقية للتدبر والمراجعة، معتقدًا أن الحياة جاءت لكى يستمتع الإنسان ويغتنم الفرصة لكى يحقق لنفسه أكبر قدر من السعادة والمرح، ولقد كان بالأمس حريصًا على زيادة الرقعة الزراعية بشراء المزيد من الأرض طواعية، أو إكراهًا، أما الآن فقد حدث تطور خطير، فقد فوجئ الناس

بأبو العز سليم يعرض مساحة عشرة أفدنة للبيع ، وقد كان هذا التصرف مدعاة للدهشة الكبيرة ، وعلل أبو العز ذلك بأن الحياة فى المدينة لها متطلباتها الكثيرة ، وأن أبواب الصرف قد اتسعت ولهذا فإن دخل المحاصيل لم يعد يكفيه ، لكن العقلاء اعتبروا ما فعله أبو العز إسرافًا وسفهًا ، ولم يجرؤ أحد على أن يصارحه بالأمر ، ولعل ماضيه جعلهم يستشعرون الشماتة ، بل تمنوا أن يفلس رجل مثله لديه تلك المساحات الكبيرة من الأراضى الزراعية الجيدة ، وحاول إبراهيم عبد اللطيف أن يعيده إلى الصواب ، ويبصِّرهُ بنتيجة سياسته الخرفاء ، لكن أبو العز كان قد انطلق كالفرس الجامح دون لجام ، ولن يتوقف إلا إذا هدّه الإعياء ، أو تعرض لحادث مباغت تركه جريحًا مهيض الجناح . . .

وعلق الشيخ عبد القادر الشاذلى على ما يقال عن أبو العز سليم بقوله :

- «إنك لا تهدى من أحببت ، ولكن الله يهدى من يشاء» .

وقال أحد الجالسين :

- «يبـدو أنه فى حـاجـة إلى نكسـة تعـيـده إلى طريق الصواب».

رفع الشيخ يده محتجًا وقال:

- «استغفر الله، إن ما يصاب به المرء ليس مجرد عقوبة، ولكنه ابتلاء وامتحان من الله، قد ينجح فيه المرء، وقد يرسب. . . والبلايا قد تنهض بك، وقد تهوى بك إلى واد سحيق، وعلى المؤمن أن يكون فى مقام الحمد لله. . . هذا إذا كان صادق الإيمان. . .».

وفى هذه الأيام بدت نذر مخيفة تطلع فى الأفق، لقد استطاع سعد زغلول أن ينتصر مرحليًا على تعنت الإنجليز، وانتزع منهم بعض الحقوق لشعبه، وألّف الوزارة فى حماية التأييد الشعبى برغم غضب الإنجليز، ومات سعد فى عام ١٩٢٧، وخرجت الجمع باكية حزينة تشيعه إلى مثواه الأخير، كان كربٌ أسرة عظيم، تركها دون أن تنمو النمو الكافى، ولذلك شعر الناس بما يشبه اليتم، وأخذوا يرددون فى أسى:

ما كأنس يومك يا حبيبى يا رئيس يا جليل

ذكر حمام طار من برجه، وساب الزغاليل

ترنم الناس بهذه الكلمات فى القرى والكفور، والمدن، متعلمين وأميين، مسلمين ومسيحيين، مؤيدين ومعارضين، ثم ظهرت بعد ذلك بوادر الفرقة حينما نشأت أحزاب جديدة خرج معظمها من تحت عباءة الحزب الأم حزب الوفد، فأصبح هناك حزب السعديين وحزب الأحرار الدستوريين، وحزب الأمة، والكتلة الوفدية، وكذلك ظهرت جماعات إسلامية ذات أنشطة بارزة، وانعكس ذلك على قرية شرشابة. فقد انحازت الجهة الشرقية من القرية إلى حزب الوفد، أما الجهة الغربية على الجانب الآخر فقد اعتنقت مبادئ الحزب السعدى، وأقيم له فرع برئاسة محمد بك جمال الدين، وكان إبراهيم عبد اللطيف والشيخ عبد القادر الشاذلى من أتباع الوفد، وتعصب العامة هنا وهنالك، وكل فريق يؤكد أنه على الصواب، لكن الطرفين أجمعوا على حب سعد باشا، واعتقد كل منهما أنه يسير على نهجه، واشتد الجدل والصراع، حتى بلغ فى بعض الأيام إلى حد الصدام العنيف الذى أسال الدماء، وإن لم يكن هناك ضحايا، وتولى مصطفى النحاس باشا زعامة الوفد، وكان وطنيًا مخلصًا طيب القلب.

وحزن الشيخ الشاذلى لما يجرى، وحسب أن فتنة ضارية تقف على الأبواب أشد قسوة من الإنجليز أنفسهم، فتمزق الأمة مدعاة للهزيمة والخراب، وتكريس للاحتلال، وقال إبراهيم عبد اللطيف:

- «ما هو الحل يا سيدنا؟».

- «أولاً تعرفه يا إبراهيم؟».

- «نريد أن نسمعه منك».

- «هو أن نعتصم بحبل الله المتين».

- «كيف؟؟».

- «أن نكون إخوة فى الله بحق. . . وأن نتقى الله، ونترك الحرام، ونقبل على الحلال، وأن نقيم الصلاة، ونؤتى الزكاة، وأن يعذر بعضها بعضًا فيما اختلفنا فيه، الحل هو أن يكون كتاب الله هو الحكم بيننا. . .».

- «صدقت يا مولانا، لكن الناس لا يفكرون إلا فى أمور الدنيا».

- «الدنيا مرحلة مؤقتة يا إبراهيم، والآخرة هى دار

القرار، والأُولى تُسْلِم إلى الثانية». لقد فرّق الناس دينهم شيعًا وأصبح كل حزب بما لديهم فرحين. . . وذلك هو الضلال البعيد».

فى صبيحة كل يوم يخرج الأطفال والصبية أفواجًا أفواجًا ذاهبين إلى مكاتب تحفيظ القرآن، أو المدرسة الأولية الإلزامية، وقليل منهم يذهب إلى مدرسة سنباط الابتدائية، وهى المدرسة الابتدائية الوحيدة فى المنطقة كلها، يفد إليها الطلاب من شرشابة والكفور وميت ميمون وميت المخلص، والعجزية وميت البز ومنية المبشرين وغيرها، وكانوا يذهبون إليها سيرًا على الأقدام لمسافة خمسة كيلو مترات ذهابًا وإيابًا، وكانوا يتحملون المشقة أصلا فى حياة أفضل، وكان إبراهيم يرقب هؤلاء الأطفال بعين مبتهجة، ويدعو لهم بالتوفيق، ويحلم باليوم الذى ينضم فيه حفيده إلى هذا الموكب الرائع الذى يخفق له قلبه متعة وسعادة. . .

واجتاح القرية وباء خطير، أدى إلى وفاة عدد كبير من الناس، وحزن إبراهيم أشد الحزن، إذ إن هذا الوباء طال أخاه السيد على فأسلم الروح بعد صراع مرير مع الحمى لم

يدم أكثر من أسبوع، وبكى إبراهيم أخاه فى حرارة، شعر كأنما قطعت يمناه، وسلبت روحه، لكنه كتم ألمه، وجلس يذكر الله وسط زوجة أخيه وأبنائه حميده وعائشة وسليمان الصغير، وتمتم:

- «الأحباب دائمًا يرحلون».

قالت البابلية والدموع فى عينيها:

- «وليس لنا فى الأمر حيلة».

- «وغدًا نرحل يا بابلية... البقاء لله وحه...».

- «مات الجوهرى... ومات سعد... ومات نبينا الكريم ﷺ».

- «مات السيد على كما يموت الناس».

-«وكما سنموت نحن».

وفدت إلى القرية قافلة طيبة مكونة من أطباء وممرضين وعدد من الموظفين والحراس، ونصبوا خيامهم فى «جرن التابعى» وهو عبارة عن أرض لا تُزرع، وأخذ الأطباء يجوبون الشوارع القرية بصحبة رجال الشرطة، وينقلون

المرضى إلى خيام العزل الصحي، ويقدمون الإرشادات للناس عن كيفية الوقاية من المرض، كما أخذوا يسوقون الناس سوقًا لأخذ اللقاحات الواقية من المرض، وكان الناس يخفون مرضاهم عن أعين المراقبين الصحيين ظنًا منهم أن من يذهب إلى العزل يموت، وقد ملت عدد كبير فعلاً فى العزل بعد أن استبد المرض بضحاياه، وقد كان يصعب على الناس أن يصدقوا بأن العزل إنما جاء أساسًا ليحمى المخالطين من عدوى المرض الذى لم يكتشف له الأطباء دواءً شافيًا، وكادت تنشب معارك بين أهل البلد والسلطات الصحة لولا أن وقف الشيخ عبد القادر الشاذلى فى المسجد خطيبًا يقول لهم:

- «لقد علمنا رسول الله ﷺ أنه إذا كان الطاعون بأرض فلا نخرج منها، وإذا كنا خارجها فلا ندخلها... كما أوصانا ألا نخالط المرضى المعدين إلا بشروط... حتى الإبل المريضة منع الرسول دخولها على الإبل السليمة، وقال ما نصه: «لا يوردن ممرض على مصح...» ولم يصافح رسولنا المريض بالجذام وقال له: اذهب فقد بايعت. إن التزامنا أيها الناس بتعليمات وزارة الصحة هو فى الأصل

التزام بتعاليم ديننا الحنيف. . . قوموا إلى الصلاة يرحمكم الله. . . ».

وتلاشى العداء الذى يكنه الناس لأفراد الفريق الصحى، وأقبلوا على تنفيذ التعليمات، وعندما طلب رئيس الفريق من العمدة أن يمده ببعض المتطوعين للمساعدة فى العمل، لبى الناس الدعوة فى رضى، وخصة أن الحكومة رصدت للمتطوعين مكافآت بسيطة، وكان الناس يضحكون من إخوانهم فى القرية وهم يرتدون الزى المميز للتومرجية، وكان «عبد الصبور» من أشهر هؤلاء المتطوعين، وخاصة أنه كان يقوم على خدمة الطبيب الكبير الذى يرأس المجموعة، ويعد له الطعام، ويغسل له ملابسه، ويقضى حوائجه، وكان الناس -برغم الموت والمرض- يرددون أغنية ضاحكة تقول:

لحـمة ضـانى كُلْ يا دكـتـور

لِمّ العـضم يا عـبـد الصـبـور

وكان عبد الصبور يضحك من قلبه، وهو يسمع الأطفال يرددون هذه الأغنية، أحيانًا يتراقص وفى يده الدلو الذى يحمل فيه النفايات، والأطفال يحيطون به ويصفقون

ويقلدونه فى الرقص، وقد يتصادف فى هذا الوقت أن تنطلق صيحات الثكل والأسى من أفواه النساء أثناء تشييع جنازة أحد ضحايا الوباء، ومن الغريب أن حفلات الزواج لم تتوقف تلك الأيام.

وأخذت الفرق الصحية تطوف بالبيوت وتقوم على تطهيرها وتعميقها، وإجبار الناس على الاستحمام بالماء الساخن المعقم، ورش المبيدات لقتل الحشرات.

إن معايشة الناس للموت جعلتهم أقل خوفًا منه، وأكثر استعدادًا لتقبله، ومع ذلك فقد قصد الناس كتاب التعاويذ والأحجبة، ظنًا منهم بأن ذلك يمنع المقدور، وأكد بعضهم على أهمية الوقاية والعلاج بالأعشاب الطبية، فأصبحت سوقها رائجة بين الناس، أما إبراهيم عبد اللطيف فقد أصدر أوامره لأهل البيت جميعًا بألا يخرجوا منه، وأن يلتزموا بتعليمات الأطباء حتى تنتهى دورة الوباء اللعين.

□□□



اتفق كامل إبراهيم عبد اللطيف وزوجته رقية ابنة الشيخ الشاذلى على أن يبيع معظم مجوهراتها، وكذلك المواشى الخاصة بهما، وأن يضيفا الثمن إلى مدخراتها الأخرى، وذلك بهدف شراء قطعة من الأرض الزراعية، يزرعها كامل لحسابه، قد حان الوقت الذى يفكر فيه لبداية حياة مستقلة، فليس من المعقول أن يظل عالة على أبيه بعد أن تزوج وأنجب حتى الآن ولدين، ورحب أبوه بالفكرة، بل شعر بالسعادة إذ يرى ولده الأكبر يحاول أن يبنى كيانه الاقتصادى، ويستخدم أمواله وأموال زوجته المجمدة فيما يفيد، فضلاً عن أن ذلك يساعد على اتساع رقعة الأرض الزراعية لأسرة عبد اللطيف فالأرض بالنسبة لأهل القرية هى مصدر الرزق، ورمز العزة، والحفاظ عليها حفاظ على العرض

والكرامة، ومن يفرط فيها كمن يفرط فى شرفه، وأمنية الجميع أن تنمو ممتلكاتهم وتمتد، و«صاحب الطين» أو الأرض رجل مكرم محترم، وابتسم إبراهيم فى سعادة وقال لولده كامل:

- «الأرض هى جذورنا فى القرية».

- «أعرف ذلك يا أبى».

- «إذا أنا مت يا كامل، فاحذر أنت وإخوتك أن تبيعوا شبرًا واحدًا منها».

- «ليس هناك ما يدعو إلى ذلك يا أبى».

- «لكن أعطوا البنتين أسماء ونجية حقهما فيها وكذلك نسائى، هذا شرع الله يا ولدى، ولكن من أرادت أن تبيع فلتشتروا منها بالسعر السائد دون ظلم..».

أمسك كامل يد أبيه وقبلها فى حنو زائد وهو يقول:

- «أطال الله عمرك يا أبى، حتى تضمنا دائمًا تحت جناحيك».

صمت إبراهيم برهة ثم قال :

- «هل وقع اختيارك على الأرض التى ستشتريها؟» .

- نعم ، فدان من أرض أبو العز ، وقد وعدونى بأن يتساهلوا فى السعر إكرامًا لخاطرك» .

رانت سحابة أسى على وجه إبراهيم وقال :

- «لا ، بل سنشترى الأرض التى سلبها منا أولاً البجيرى» . . . أتذكر يا كامل ، كان ذلك منذ عشرين عامًا . . . كنت أنت صغيرًا . . . ورفعوا ضدنا دعوى لكى يشتروا قطعة منا رغمًا عنا حتى تكون طريقًا لتوصيل مياه الترعة إلى أرضهم . . وخسرنا القضية . . أخذوا منا نصف فدان بثمن بخس . . . لست أدرى كيف حدث ذلك ، أعترف أننا أهملنا أنا وعمك السيد على ، ولم نحرص على حضور القضية ، وكان محامينا من النوع الكسول . . تلك إرادة الله ، يومها لم أنم الليل ، واعتكفت بالبيت شهرًا . . . كانت هذه القضية مأساة كبرى بالنسبة لى أنها أرض جدك عثمان . . والسنين تمر ، وكلما تذكرت هذه الواقعة أصابنى

غم شديد. . . وكلما مررت على هذه الأرض يا كامل. . يخيل إلى أنها تصرخ مستغيثة وتنادينى كى أنقذها من أولاد «البجيرى» وأردها إلى عصمتى. . . نعم إلى عصمتى. . . فالأرض عِرْض. . . كنت أبكى أحيانًا، وأسارع بتجفيف دمعتى قبلَ أن يراها أحد. . هل تتصور؟ الأرض تمد يديها إلى وكأنها إنسان وتقول: أنقذنى. . . خذنى إليك. . . أنا أعلم أن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، لكن الله هو الذى زرع فى قلوبنا حبها لحكمة يعلمها هو. . . لقد علمت يا كامل أو أولاد البجيرى يريدون بيع هذه الأرض التى أخذوها من قبل ومعها أرضهم، إنها أكثر من فدان. . . فلتشترك على الفور، ويمكننى أن أمدك بما تقصر يدك عنه، هم أنفسهم عرضوها علىّ. . . الحمد لله سيعود الغريب إلى أهله، الأرض أهلنا، ونحن أهلها، وهى تفرح بأصحابها، ذلك لأنه طُبعت على الوفاء والإخلاص. . . ».

همّ كامل واقفًا، وهو يمسح دمعة أفلتت منه تأثرًا وقال:

- «سوف أكتب العقد اليوم بإذن الله. . سأقول لهم إن أبى يريد ذلك».

- «وهم يريدون أيضًا يا ولدى، والله فعال لما يريد».

وعادت الأرض وأكثر منها إلى أصحابها، كان إبراهيم متوعكًا طوال الأسبوع الماضى، وعندما تم شراء الأرض هب إبراهيم من سريره واقفًا كالأسد، والفرح يغمر وجهه، وخرج إلى الحارة، كان الناس يهنئونه ويهنئون ولده كامل بالصفقة الجديدة، وذهب إبراهيم إلى حقله القديم، وقف على شاطئ الترعة فى ظلال شجرتى التوت والصفصاف، وملأ رئتيه بالهواء النقى، ثم مد بصره فوق الأرض الخضراء، خيّل إليه أنها تفتح ذراعيها لتحتضنه نسى نفسه وفتح ذراعيه كأنه يستقبلها فى عشق ثمْ ارتمى على الأرض يقبلها ويبلل ثراها بالدموع، ويمرغ وجهه ولحيته فيها، ويغمغم «حبيبتى، ها قد عدت إليك، فأنا وأنت كيان واحد، منك خلقت، وإليك أعود. . . مصيرنا مرتبط إلى الأبد، قطعت عينى لو أسلمتك لإنسان آخر، كان يجب أن أدفع عنك حتى الموت، لكنى يومها كنت فقيرًا ضعيفًا صغير السن، قليل التجربة. . أرجو أن تسامحينى. . ».

ولاحظ الناس أن إبراهيم عبد اللطيف يذهب صباح كل يوم غلى أرضه الجديدة ، ويجلس قبالتها على شاطئ الترعة فى ظل الشجر ، ثم يعد الشاى لنفسه ، ويتناول فطوره ، وكثيراً ما يكون معه بعض أصحابه ، ويظل جالسًا هناك فى متعة وسعادة حتى قبيل العصر ، عندما يحين موعد تناول الغداء ، وظل على هذا الوضع لشهور طويلة ، كأنما أراد أن يعوض الأرض عن سنوات الحرمان الطويلة التى قاسى وقاست منها ، وكان حريصًا على إخراج زكاة المزروعات لكل محصول فى الأرض نفسها ، وكان الفقراء والمساكين يفدون إليه فى موقعه ، ويقوم بنفسه بالتوزيع عليهم .

قالت له البابلية ذات يوم :

- «إلى متى تذهب إلى الأرض كل صباح؟» .

- «إلى أن تأذن لى» .

- «الأرض صامتة لا تتكلم» .

- «بل تنطق بألف لسان» .

- «إنها أرض كبقية الأرض» .

صاح فى غضب :

- «لا . . . وألف لا . . . إن فـيـهـا رائحـة عـرق آبائى وأجدادى» .

- «لا بأس ، لكنها باقية ، أتخاف أن يخطفها أحد؟» .

- «لن يسـتطيع مـخلوق أن يفـعلهـا ، دون ذلك دمى وروحى» .

قالت البابلية فى ابتسامة ذات معنى :

- «الناس يرحلون ، والأرض باقية» .

- «تلك سنة الله ، لكن أرواحنا تحـوم حـولهـا حتى بعد الموت» .

- «أنت تعلم أن ملكيتنا لها تنتهى بموتنا ، ولا يبقى لنا إلا المساحة الصغيرة التى ننام فيها النومة الأبدية . . . » .

- «أنا برىء من أى ابن من أبنائى يبيع شبراً من أرضه» .

- «الموتى لا يحكمون أو يحاكمون أحداً يا إبراهيم» .

وقال وهو يجول بنظراته فى الغرفة :

- «المال ينفد، والبيوت تتهدم، والثياب تبلى، لكن الأرض باقية حتى قيام الساعة».

- «لست أدرى لم هذا الحب الزائدة؟».

- «شىء فى دمى، ورثته عن أسلافى».

- «الناس يبيعون ويشترون كل يوم».

- «ألم تفهمى بعد يا امرأة؟؟».

هزت رأسها قائلة :

- «فهمت، لكنى سأبيع ميراثى من أبى، فلا يُعقل أن تذهبوا إلى «ميت ميمون» وتزرعوها هناك».

- «أنت حرة، هذا شأنك».

- «ليس لى من الأمر حيلة».

- «تستطيعين أن تبيعيها لإخوتك».

- «وإذا لم يكن معهم مال؟».

- «نظرة إلى ميسرة، أو بالتقسيط . . . » .

اقتربت منه وأمسكت بيديه قائلة :

- «أصبحت أغار من الأرض» .

- «الأرض فى خدمتنا، والكون كله مسخر للإنسان» .

شعر محمد شقيق كامل وأخوه أحمد بشىء من الضيف لتميز كامل بعد أن اشترى الأرض، وبادر محمد بتقليد أخيه، فباع مجوهرات زوجته تمهيدًا لشراء أرض، أما أحمد فلم يتزوج بعد، ولذلك كان حزينًا لا يستطيع فعل شىء، أما عبد الفتاح فقد انشغل بحياته التعليمية انشغالاً محدودًا، وكف عن التفكير فى الزواج، ولم تكن تهمه قضية الأرض، وعلى الرغم من الغيرة التى دبت بين الأخوة، إلا أن إبراهيم كان سعيدًا بذلك، ومصدر سعادته حبهم للأرض، ورغبتهم العارمة فى توسيع رقعتها .



صلى إبراهيم الفجر، وجلس يذكر الله حتى أشرقت الشمس، ثم تناول طعام الفطور، ثم شرب الشاى فى تراخ، كان يجلس شاردًا، أدركت البابلية أنه على غير عهدها به فقالت:

- «ما بك؟».

- «لا أريد أن أكون مبعث قلق لكم».

- «إذن هناك شىء تكتمه».

ابتسم فى أسى وقال:

- «رأيت فيما يرى النائم أن أبى عثمان وجدى أحمد قدمًا لزيارتى، وفى نهاية الزيارة قالوا لى: قم معنا يا إبراهيم، قلت لهم: إنكم تأتون لزيارتى كل عام، ثم

ترحلون وتتركوننى. . . فأصروا أن أصحبهم هذه المرة. . . هذا كل ما فى الأمر. . .

قالت البابلية فى لهفة:

- «ما معنى ذلك؟».

- «أنا لا أجد تفسير الأحلام، لكن المعنى واضح، ولأقلها بصراحة، ويبدو أن العمر أوشك على الانتهاء».

استعاذت بالله من الشيطان الرجيم، واعترضت على تفسيره وأوصته أن يذهب إلى الشيخ عبد القادر الشاذلى، فلديه كتاب ابن سيرين لتفسير الأحلام، ويستطيع أن يفتى فى أمر كهذا، وأوصته بأن يطرح عن نفسه تلك الوساوس والأوهام، وأكدت له أن عمره طويل بإذن الله، وصحته ممتازة، وأنه سوف يسعد بأبناء أحفاده، ويعمّر حتى المائة عام إن لم يكن أكثر، وحاول إبراهيم أن يتخلص من كدره، فابتسم مؤكدًا أن الموت والحياة بيد الله سبحانه، وأنه عاش طول حياته معتمدًا على الله، راضيًا بقضائه وقدره، ولسوف يذهب الآن للمرور على الأرض التى تخضع

لحراسته، وينظر فى أمر جمع المحاصيل، والترتيب لمحاسبة الفلاحين الذين يزرعون أرض أبو العز حتى يعرفوا حقوقهم وحقوقه، لكنه الآن يقوم بالجولة التفتيشية وحده بعد أن رحل أخوه السيد على إلى رحاب الحق بعد أن أتاه النداء، وكلما تذكر أخاه دمعت عيناه، وبكاء الرجال الأقوياء موقف عصيب، لكن من الناس لا يبكى، ولم يتخلص من حزنه إلا عندما وقف أمام الأرض التى اشتراها ولده كامل من آل البجيرى.

وعول إبراهيم على أن يسافر إلى طنطا بحجة زيارة ولده عبد الفتاح، مع أنه كان يخفى أمرًا آخر، ذلك أنه عزم على التوجه إلى القاهرة ليعرض نفسه على طبيب كبير متخصص فى الأمراض الباطنية، ورأى أن يصحب معه ولده كامل فى هذه الرحلة، وأوصاه أن لا يتكلم أمرها فلا يفشى سرها لأحد.

وفى القاهرة صلى فى أكبر مساجدها وأشدها، مسجد الحسين والسيدة زينب والرفاعى وعمرو بن العاص، وذهب إلى نهر النيل ومشى ساعة على شاطئه مبهورًا

بعظمته، مأخوذًا بجماله وبعد إجراء الفحوصات والتحاليل الطبية، طمأنه أستاذ الطب الكبير، وأوصى بأن يظل تحت رعايته أسبوعًا فى القصر العينى.

واختلى كامل بالطبيب فى أحد الأيام، ورجاه أن يبوح له بالحقيقة، قال الطبيب فى أسى:

- «إن الشافى هو الله».

- «أسألك عن المرض».

- «ورم فى غدة البنكرياس فات أوان استئصاله».

- «ما معنى ذلك؟».

- «الأعمار بيد الله، ويجب ألا تخبره بشىء حتى لا تفسد عليه ما تبقى من أيام عمره...».

بكى كامل، وأخذ ينتحب، ربت الطبيب على كتفه، وواساه بكلمات مشجعة لا تقطع الأمل.

وفى طريق العودة من القاهرة إلى طنطا قال إبراهيم لولده:

- «أشعر أننى قد أديت رسالتى نحو الناس ونحو أولادى».

قال كامل فى أدب:

- «وأحفادك؟».

- «فيكم البركة».

أدرك كامل أن أباه يشعر بالخطر دون أن يصرح له الطبيب، فقد كانت شفافيته تكشف له عن الكثير من الأسرار والأمور الخفية، وبعض التوقعات المستقبلية، أليس هو الرجل الصادق العابد الزاهد؟ ولم يمض بطنطا سوى بضع ساعات زار خلالها ولده عبد الفتاح وأدى صلاة الجمعة فى المسجد الأحمدى، وعند جلوسه مع عبد الفتاح داعبة قائلاً:

- «ما هى أخبار نعيمة؟».

أجاب بسرعة فى حرج:

- «تزوجت صديقى إبراهيم عيد صاحب محل إصلاح الساعات».

ضحك إبراهيم وقال :

- «هل أنت حزين؟ خيرها من غيرها» .

- «لا يا أبى ، فالزواج قسمة ونصيب» .

- «إذا نجحت هذا العام ، فسأختار لك زوجة تقر بها عينك» .

ومن طنطا توجها إلى شرشابة ، ولم ينس إبراهيم فى طريقه أن يعرج على الأقرباء ، فى زيارات خاطفة ، فمر على بعضهم فى السنطة المحطة «والسنطة البلد» وكفرخزا وعل وميت ميمون حيث أصهاره من أسرة البابلى ، ومال على قرية «شنراق» وفيها أبناء عمومته الذين رحلوا عن شرشابة منذ سنوات طويلة واستقروا هناك . . . وعند مدخل شرشابة ، أو قبله بقليل التفت إلى المقابر القائمة على اليمين وتمتم السلام عليكم يا أمة لا إله إلا الله محمد رسول الله الفاتحة لكم جميعًا كافة عامة ، ثم قال لولده كامل :

- «اقرأ الفاتحة على أرواحهم . . . هنا يرقد الآباء والأجداد» .

وعندما دلف إلى شوارع القرية وحاراتها، كان الناس يهبون واقفين عندما يلقى عليهم السلام، ويغدقون عليه التحيات وكلمات الترحيب والتكريم، وأثناء السير رأى محمد بك جمال الدين جالسًا فى دواره، فنزل عن فرسه، وقصده للتحية وشرب معه القهوة. وأخيراً مال على بيت صهره الشيخ عبد القادر الشاذلى، فتصافحا وتعانقا، وجلسا بعض الوقت ومعهم كامل، وقال الشيخ:

- «عليك غبار السفر».

تمتم إبراهيم وقد اغرورقت عيناه:

- «كانت رحلة الوداع».

خفق قلب كامل خوفًا، وشحب وجهه ولكنه لم ينطق، كان يحمل همومًا تنوء بها الجبال، ويكفى أنه الوحيد فى الأسرة الذى يعرف مدى خطورة مرض أبيه، وقال الشيخ الشاذلى:

وكل مسافر سيؤوب يومًا
إذا رُزق لسلامة الإيابا

ونحن جميعًا يا إبراهيم عابرو سبيل، وكلنا على وداع، ألم يوصنا الرسول أنه نصلى صلاة مودّع؟ صلاة وداع خمس مرات فى اليوم، لكن لم هذه النغمة المتشائمة؟

- «إحساس داخلى يا شيخنا».

- «لكن الشيطان خبيث، وقد يوسوس فى صدورنا».

- «وما المخرج يا مولانا؟

- «اقرأ القرآن كأنه نزل عليك... وسبح بحمد ربك».

- «إنها أفضل من وصفة الطبيب المعالج».

- «الطب طبّان يا إبراهيم كما يقول ابن «القيم الجوزية» طب الأبدان وطب القلوب، ومن لا يعرف إلا طب الأبدان فهو نصف طبيب...».

- «نحن فى عصر أنصاف بل أرباع وأخماس الأطباء... حتى الأذن يا مولانا والأنف لهما طبيب مختص».

وضحك إبراهيم لأول مرة منذ أن أتى من قلبه وهو يستطرد قائلاً:

- «يعنى لو أراد إنسان أن يفحص جميع أعضاء جسمه لاحتاج إلى عشرة أو عشرين طبيبًا، وبذلك يبيع كل ما يملك حتى يدفع لهم».

شاركه الشيخ عبد القادر الشاذلى الضحك وعلق:

- «البابلية تغنيك عن كل هؤلاء».

وقبيل المغرب بلغ إبراهيم داره.

كانت الأزمة الاقتصادية العالمية آخذة بخناق الناس، والقطن انخفضت أسعاره، وظهرت بوادر الفقر هنا وهناك، وصدقى باشا بعد أن ألف الوزارة يحكم الناس بالحديد والنار، وخاصة بعد أن ألغى دستور ١٩٢٣ الذى كفل الحريات، وحدد الواجبات، والناس لا يهمهم إلا ما ينعكس عليهم بالرخاء والحرية والسعادة، فهم لا يقرأون النصوص، وكلنهم يمارسون الحياة، وتمتم إبراهيم فى حزن:

- «الخلائق تعيش فى قحط وشقاء، ولا ملجأ من الله إلا إليه».



عندما علم أبو العز سليم بمرض إبراهيم عبد اللطيف غمغم قائلاً: «لقد اتسعت مملكتك يا بلعوطى، لكن أعمدتها تهتز، وجدرانها تتشقق، وأصبحت على وشك الانهيار»، ورأى أبو العز برغم هواجس الشماتة الرخيصة التى تراوده وهو سكران، أن يعد العدة لزيارة البلعوطى الذى حرس أملاكه، وضمن له الاستقرار، ورد عنه كيد المتمردين والكارهين والمظلومين، لقد انتصر البلعوطى فى النهاية، لكن الفائدة عادت إلى أبو العز الذى تناسى أحقاده القديمة تجاه إبراهيم، وبدأ عهداً من التصالح والمسالمة، بعد أن اتضح له أن ذلك فى صالحه، لكن ماذا سيحدث لو مات إبراهيم عبد اللطيف لا قدر الله؟ هل يستطيع ولده كامل أن يملأ الفراغ الشاغر، كان أبو العز يشك فى ذلك، فهناك

أمور يمكن توارثها، وهناك أمور أخرى طبيعتها معقدة يصعب أن تنتقل من أب لابن، لكن لماذا يسبق أبو العز الحوادث، هو نفسه أوشك على الموت ذات مرة، لكنه شفى ونزح إلى طنطا وتزوج مرة أخرى وأنجب، ومازال يستمتع بحياته، والبلعوطى صنف من الرجال صلب العود قوى الإرادة يلازم الفراش ثم يهب واقفًا كالأسد، إنه مثل الشجرة القوية الراسخة الجذور لا تموت إلا وهى واقفة.

لكن الأنباء جاءت من «شبرا الديب» تحمل فى طياتها أزمة جديدة لأبو العز سليم، فقد حاول ابنه فريد أن يختطف إحدى الغوازى فى قرية سنباط وهو تحت تأثير المخدرات، شاهرًا سلاحه فى وجهها، فاستغاثت بالناس الذين تقاطروا من كل صوب وأمسكوا بفريد ثم وضعوه فى غرفة الحجز بأمر من العمدة توفيق بك الخشن، الذى استشاط غضبًا، مستنكرًا تلك الجرأة الممقوتة التى لم تراع شعور الناس، ولا احترام العمدة، ضمان أمن النساء مهما كانت صنعتهم، ورأى أبو العز سليم أن يقصد إلى سنباط بنفسه، لكن المخلصين من أصدقائه نصحوه بالتريث حتى لا

يتعرض لنقمة العامة، وخاصة أن مهازل ولده فريد قد زادات عن الحد، وأمعن فى الفساد والفجور، حتى كرهه الناس وتمنوا الخلاص منه. ولم يترك مكانًا إلا وحاول فيه مشاغبة النساء، وارتكاب الحماقات متناسيًا أن الزمن قد تغير، وأن الناس قادرون على انتزاع حقوقهم إن لم يكن بالقانون فبالقوة، وتعرض فريد للقتل مرات عديدة، ولم يدر أبو العز ماذا يفعل إزاء هذا الابن العاق الضال، الذى أبطرته النعمة، وأفسدته الصحبة، ولمعت فى رأسه فكرة، أنه ذاهب لزيارة البلعوطى، فلماذا لا يوسطه فى حل هذه المشكلة الشائكة؟».

تحامل إبراهيم على نفسه، وغادر فراشه، وركب فرسه وإلى جواره ولده كامل، واتجه فورًا إلى سنباط برغم ما يعانية من متاعب، كان موقنًا أن فريد مخطئ، وأنه يستحق العقاب حتى لا يتمادى فى عبثه ومجونه، وكان أبو العز يقر إبراهيم على رأيه، ومع ذلك فقد ذهب إلى توفيق بك الخشن مبديًا أسفه على ما بدر من ذلك الشاب المنحرف، كما أبلغه أسف أبيه أبو العز، ورجاه أن يطلق سراحه هذه

المرة، مقابل غرامة يدفعها للمرأة التى حاول اختطافها، ووافق توفيق بك بعد جهد كبير من إبراهيم، لكنه لوح بسبابته قائلاً:

- «بشروط».

قال إبراهيم على الفور:

- «شروطك مقبولة يا بك».

- «ألا يدخل هذا الولد سنباط ما دمت حيًا».

- «أتعهد بذلك».

- «وإذا خالف، فسأربطه فى شجرة الجميز، وأترك الناس يبصقون عليه، بل يرجمونه...».

كان توفيق ثائرًا، وإبراهيم يعلم أنه طيب القلب، لكنه يأبى الضيم، ويأنف عن التصرفات التى تمس الكرامة، صحيح أن المعتدى عليها غازية ترقص وتغنى فى الأفراح، لكنها إحدى رعاياه، وفى عنقه حمايتها كأى ساكن فى سنباط، وما فعله فريد تجاهُل لسلطات توفيق بك، وافتئات

على أمن الناس والبلد، وعاد إبراهيم بفريد إلى كفر شبرا الديب، حيث كان فى انتظاره أبوه، ورفع الرجل عصاه ليهوى بها على رأس ولده، فأسرع إبراهيم بالإمساك بها قبل أن تطاله، وصاح أبو العز:

- «خذوا هذا الفاسد عنى. . . قسمًا بالله إذا لم ترتدع لأحرمنك من الميراث».

وتمتم فريد بعد أن خرج من لدن أبيه:

- «الحال من بعضه».

وقالت له أمه:

- «لا تكن مجنونًا».

- «إن أبانا يحرم علينا ما يبيحه نفسه، أنسى أنه كان شابًا يومًا ما، وأنه مازال يتصابى ويقلد الشباب، برغم اقترابه من سن السبعين».

- «اغلق فمك يا ولد، وإلا ضربتك بالحذاء».

لوح فريد بيده، وأشاح بوجهه وهو يقول:

- «سكتنا» كلمة الحق فى هذا البيت حرام علينا. . . ».

ولم يخف على أحد أن البلعوطى قد ازداد شحوبًا ونحولاً، وأن وزنه قد نقص إلى حد كبير، وكانت البابلية تعتقد أن ذلك راجع لعدم إقباله على الطعام كعادته السابقة، ولهذا كانت تلح إلحاحًا شديدًا لكى يأكل، لكنه كان يؤكد لها أن الأمر ليس بيده، فلو كانت لديه الشهية السابقة لأكل حتى امتلأت معدته، وماذا يفعل إذا كان يشعر أن معدته ملآنة بالطعام حتى فى أوقات الجوع، ولقد جرب الصيام تطوعًا لله، ومع ذلك فإن الوضع لم يتغير، بل حذره الطبيب من الصوم، وذلك لأنه يتناول العقاقير الطبية فى أوقات متقاربة، وبعضها يحتاج إلى طعام قبل تعاطيه، وقالت مبروكة لمسعدة:

- «إن مرض إبراهيم مستعصٍ وحالته تتأخر يومًا عن يوم».

ردت مسعدة فى غضب:

- «فال الله ولا فالك يا أم محمد. . . صحته كالفل، وسوف يشفيه الله».

وقبع كامل إلى جوار أبيه طول النهار لا يفارقه إلا عند النوم فى المساء، كان كابيًا حزينًا صامتًا، لا يتكلم إلا إذا وجه أبوه إليه الحديث، إنه الوحيد الذى يعرف أبعاد المرض الخطير الذى سكن جسد الأب العظيم، ومع ذلك لم يكن يبكى أباه إلا إذا كان بعيدًا عنه، ورأى من الحكمة أن يخبر صهره الشيخ عبد القادر الشاذلى بالحقيقة، وعلى الرغم من أن الشيخ تألم أشد الألم إلا أنه كان قوى الإيمان بربه، فلم تراوده ذرة شك بأن الله هو الشافى، وهو سبحانه قادر على شفائه إذا أراد ذلك، وقال كامل لصهره:

- «ألا يمكن أن يسافر إلى بلاد الإنجليز ليُعالج هناك؟ يعتقد الناس أن الطب متقدم عندهم، ونحن على استعداد لأن نبيع كل ما نملك حتى نحقق العلاج الناجح لأبى».

قال الشيخ عبد القادر:

- «لا تصدق مثل هذا الادعاء».

- «إنهم يسبقوننا فى كل شىء».

- «لا تنسى يا كامل أن أساتذة الطب فى كلياتنا معظمهم من الإنجليز، وإنهم يدرسون لأبنائنا على الطريقة الإنجليزية، ولو كان هناك فائدة فى ذلك لأشار علينا طبيبنا المعالج بأن نسافر به إلى القاهرة.

خفض كامل رأسه وقال:

- «أشعر بالعجز المطلق، ما أبشع هذا الشعور القاتل».

- «ذلك لنزداد يقينًا أن الأمر بيد الله أولاً وأخيرًا، وأنه القوى القادرة».

لوحظ فى الأسبوع الأخير أن البلعوطى قد ازداد ضعفًا، ولم يعد قادرًا على مواصلة الكلام لمدة طويلة، كان يتطلع إلى سقف الغرفة فى صمت وعيناه مغرورقتان، لكنه كان يحاول التماسك، ولكنه فى أحد الأيام تطلع حواليه، فلم يجد إلا كامل، أشار إليه أن يقترب منه ففعل، تنحنح إبراهيم ثم قال بصوت حفيض:

- «أنت أكبرهم يا كامل، وفى عنقك مسئولية كبيرة».

- «بارك الله فيك، وأطال عمرك...».

- «مهما طال العمر، فلابد له من نهاية، حتى ولو عمرنا ألف عام مثلما عمر نبى الله نوح عليه السلام. . إن أحمد لابد أن يتزوج مثلكم، وكذلك عبد الفتاح، لكن عبد الفتاح مهمته الأولى العلم. . . لا تبخلوا عليه بمال حتى ينجز تلك المهمة. . لا تقاطعنى. . . استمع إلى. . . لقد شارفت على الخامسة والستين، زوجاتى الثلاثة أوصيكم بهن خيراً. . وأنت بالذات. . . ولدى الأكبر. . . لا أطلب أن تكون مثلى إن لكل عصر رجاله وظروفه، يخيل إلىّ أنه قد مضى زمن العصى والكرباج. . . اعرف دينك تعرف طريقك. . واستفت قلبك وإن أفتاك الناس. . واستمع لصوت ضميرك، فإنه صوت الحق فى داخلك. . . اعلم أن السلام والأمن والاستقرار لا تقوم إلا فى حراسة القوة، وليست القوة كما يتصور الناس فى قريتنا سلاحًا ورجالاً وبطشًا فحسب، لكن القوة فى الحب والوحدة والعدل والتعاون. . . لو أننا فعلنا ذلك لوُجدت القرية الفاضلة التى نحلم بها. . .».

قال كامل وقلبه يخفق:

- «أعلم كل ذلك يا أبى، ولقد تعلمته فى حياتك من خلال أعمالك».

- «أحمد الله . . .».

- «لا ترهق نفسك بالمزيد من الكلام إلى أن تتحسن صحتك . . .».

ابتسم إبراهيم وقال :

- «أين حفيدى الأول؟».

- «سأحضره على الفور».

ودخل طفل صغير حلو التقاسيم، يلبس جلبابًا، ويضع فوق رأسه طاقية، واقترب من جده، وأمسك بيده ثم قبلها فى أدب وخجل، وربت إبراهيم على رأس الطفل بيده المعروفة، وتمتم :

- «قلبى يحدثنى بأنه سيكون ذا شأن».

- «مثل جده إن شاء الله».

- «بل أعظم . . . إنى أراه بعين الغيب . . . والمؤمن يرى بنور الله . . . وأين أخوه حفيدى الثانى؟».

- «إنه نائم . . » .

- «ذاك الولد ينام كثيرًا» .

- «لم يزل صغيرًا» .

فى صبيحة اليوم التالى ، انطلق الصراخ والصياح من بيت إبراهيم عبد اللطيف ، وتوافد أهل القرية من كل صوب ، ووقف كامل أمام البيت مذهولاً ، وأتى الشيخ عبد القادر الشاذلى ، وأهدابه مبللة بالدموع ، ونزل من فوق فرسه وقال :

- «إنا لله وإنا إليه راجعون . . . على مثل إبراهيم تبكى البواكى . . . مات الملك الذى جلس على عرش القلوب . . مات فقيرًا صابرًا راضيًا ، تحف به أرواح الملائكة . . . مات أشرف ميتة يتمناها مؤمن . . اجلسوا أيها الناس واقرأوا القرآن . . . وقولوا للنسوة أن يكففن عن الانتحاب والندب . . . واطلبوا منهن الصمت أو الصلاة على خير الأنام . . . إن إبراهيم أيها الناس واحد من أولياء الله الصالحين . . . ومن هو الولى أيها

الناس . . . لقد عرفه الله سبحانه فى القرآن الكريم بقوله :
﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ [يونس : ٦٢ ، ٦٣] ، فالإيمان والتقوى هما أساس الولاية . . . » .

ومن الصباح حتى الظهر تقاطر الناس من كل صوب ، وأتى إخوان الطريق من كل قرية يحملون البيارق ، وأخذوا يرتلون فى صوت باكٍ دامع «بردة» الإمام البوصيرى ، كما يفعلون دائمًا فى تشييع الصالحين من أهل القرية ، وقالت البابلية للنساء : كفوا عن الصراخ والعويل . . . وزغردوا له . . . إنه ذاهب إلى الجنة .

وانطوت صفحة إبراهيم فى الحياة .

لكن سيرته العاطرة باقية فى القلوب حتى الساعة ، وعند المقبرة وقف الشيخ عبد القادر الشاذلى يقول :

– مات إبراهيم الذى يحده الجسد فليحى إبراهيم عملاً خالدًا فى الأرض ، وروحًا طليقًا فى السماء . . .

مات البلعوطى تاركًا مملكته وطيدة الأركان عامرة بالحب والإيمان . . .

مات الرجل الذى اجتمع على حبه الأعداء والأصدقاء وسلام على إبراهيم فى الأولين والآخرين وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين . . .

وفى وسط الجمع صاحت امرأة مجهولة :

- «مع السلامة يا جمل المحامل» .

تمت بعون الله

نجيب الكيلانى

١٩٩٣

□□□